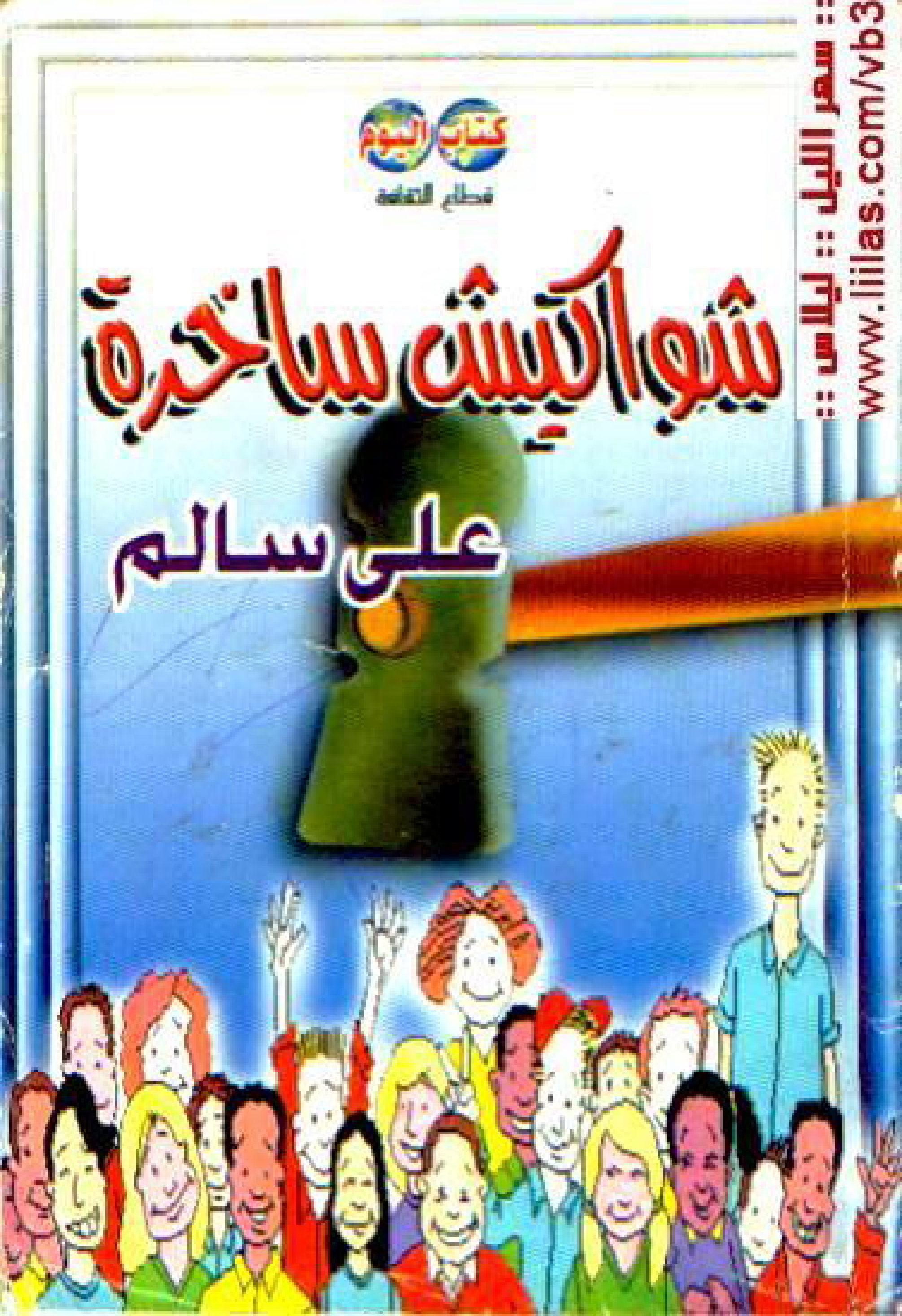

كتاب اليوم
قطاع الثقافة
شواكيش ساخرة
على سالم

هذا الكتاب

على سالم .. كاتب مهموم بمشاكل الناس العاديين .. ومهموم أكثر بعلاقة الدولة بالمواطنين .. وهو كاتب ساخر حتى عندما يكتب المقال السياسى .. !

وكتاب « شواكيش ساخرة » عبارة عن قصص وحكايات ضاحكة تشعر وانت تقراها أنها قصص واقعية .. حدثت لك شخصيا أو لقريب لك أو لأحد أصدقائك أو سمعت عنها .. كتبها على سالم بطريقة مشوقة جدا .. وهو يريد أن يصور لنا من خلال تلك الحكايات والحواديت التقاليد الجديدة التى دخلت مجتمعنا .. وعلاقة الدولة بأفراد المجتمع .

إنه كتاب يجعلك تضحك وفى نفس الوقت تتالم على حالنا فى هذا الزمان .. !!

نبيل أباظة

دار
أخبار اليوم

قطاع الثقافة

كتاب اليوم

يصدر
أول كل شهر

عدد أبريل ١٩٩٧



يحلو لى أحيانا أن أمارس عادة كان الناس يمارسونها فيما مضى فى سلام، غير أنها أصبحت خطرة هذه الأيام.. هى أن أفكر.

فى تلك الليلة جلست على مقهى بلدى فى شارعنا، شارع وادى النيل المتفرع من جامعة الدول العربية. كل من حولى انهمكوا فى لعب الطاولة والدومينو والكوتشينة بينما أنا غارق فى التفكير.. البحر.. أنا أحب البحر.. البحر الأبيض.. كان قريبا منى عندما كنت طفلا صغيرا فى دمياط.. كنت أنا أيضا قريبا منه.. عدة كيلو مترات فقط كانت تفصلنا عن بعضنا البعض. كنت أذهب إليه مع زملائى بالبسكليتات.. عدة مرات ذهبنا إليه سيرا على الأقدام بحذاء النيل المصرى الأفريقى.. لابد أننى من أتباع هذا البحر أو واحد من مريديه.. بالقطع أنا واحد من سكانه.. أحدق فى مياه البحر وكأنى أريد أن أرى جيرانى هناك.. فى إيطاليا واليونان وفرنسا.. هم أوروبا وأنا أفريقيا ولكن يفصلنا البحر.

وفجأة ظهر أمامى، هو فى مثل عمرى تقريبا، الفرق الوحيد

تصميم الغلاف / أشرف حسين

التصميم الداخلى / عبد الكريم محمود

بينى وبينه أن وجهه كان يحمل علامات الورع والتقوى واليقين، بينما وجهى يحمل ملامح الحيرة والخوف من المجهول وانعدام اليقين.

قال لى: كل من حولك انشغل بشىء مفيد.. لماذا تجلس أنت ساكتا؟

- أنا أفكر يا سيدى.
- فيم تفكر؟
- فى البحر.. فى البحر الأبيض المتوسط.
- لماذا لا تفكر فى البحر الأحمر؟
- لا أعرفه.. فى المرات القليلة التى زرته فيها لم أشعر تجاهه بالود.. هو جميل ولكنه يشعرنى بالوحشة..
- تشعر بالود تجاه الأبيض.
- نعم.. نهارك أبيض.. هاها. هاها..

لم يضحك ولم يبتسم، ملامحه فيها ورع وتقوى ولكن بدأت تزحف عليها غلالة رقيقة من القسوة، لم ارتح لنظرة عينيه.

- هل تشعر أنك تنتمى للبحر الأبيض؟
- مصر كلها تنتمى إليه، ذات يوم من آلاف السنين لم يكن أكثر من بحيرة تعبرها الأفكار والفن من هنا إلى اليونان تحمل نتاج العقل إلى هناك وتعود من هناك محملة بنتاج العقل والروح.
- لم تذكر أنك عربى..
- العرب آبائى والمصريون أجدادى الأوائل، هل تنصحنى أن أرث آبائى فقط وأترك الكنوز التى تركها لى أجدادى؟

لست أنصحك بذلك، بل آمرك.

- من أنت حتى تأمرنى ياسيدى؟
- أنا المحتسب.. محتسب شارع وادى النيل.
- اظهر لى قرار تعيينك ياسيدى.
- هو يقف أمامك الآن.. أنا نفسى قرار التعيين.. كلماتى هى القرار، ووجودى هو الختم.
- نحن نطلب من رجال الشرطة عندما يداهموننا أن يظهروا لنا إذن النيابة.. فمن أذن لك؟
- أنا أذنت لنفسى.
- ماذا تريد منى ياسيدى؟
- ألا تفكر؟
- ليس ذلك فى مقدورى حتى لو أردت
- أنت تفكر على نحو خطر.. أنت لا تنتمى للبحر الأبيض ولا لمصر ولا لأفريقيا.. أنت تنتمى لمملكة الله وواحد من رعاياها.
- سبحان الله.. نعم أنا من رعايا مملكة الله سبحانه وتعالى.. ولكن لى عنوان.. لى محل إقامة.. لى مكان.. لى تاريخ.. لى قانون.. لى دستور.. لى حقوق.
- لابد أن تنسى البحر.. ألم تجرب من قبل الاستمتاع بسحر الرمال؟
- اسمع يا سيدى.. أحب الصحراوات والغابات والبحيرات والوديان.. ولكنى مجنون بحر.
- أنا أتحدث مع مجنون إذن؟

– نعم.. إذا كانت تسعدك هذه الإجابة..

– وظيفتى أن أعيد العقل إليك.. إن عددا مناسبا من الجلدات على ظهرك العارى كفيلة بأن تعيد العقل إليك.

– الجلد ليس عقوبة فى القانون المصرى.

– غابت عندما غبت أنا.. وتعود عندما أعود..

– والله أشعر بظهرى يؤلمنى الآن..

– لم نوقع عليك العقوبة بعد..

– إما أنك تريد إلغاء القانون أو إلغاء مصر.. أم لعلك تريد إلغاء الجغرافيا أيضا.. فيضيع التاريخ، وبذلك تعيدنى مائة ألف عام إلى الوراء، حيث لا بلدان ولا حدود ولا هوية ولا شىء.. هل تتصورنى الآن جالسا فى كهف، مرتديا جلد الماعز.. أنا أجلس على مقهى، مقهى مضاء بالكهرباء، وزبائن يحتسون الشاى الذى صنع على البوتاجاز.. هذا الغاز استخرج من الأرض بمعدات صنعت فى الغرب.. انظر يارجل، هذه سيارة.. وهذا رجل شرطة.. هذه عيادة طبيب.. اقرأ اللافتة.. لقد حصل على شهادته من إنجلترا.. هو زميل للجراحين هناك.

– تستشهد بكافر مثلك.. دوره لم يأت بعد.. هو طبيب كافر لأنه لا يعالج الناس بكلمات الله..

– العكس صحيح ، لقد استمع الرجل لكلمات الله ورسله فطلب العلم وتعلم وعالج الناس بعلمه.

– تعلم عند الكفار..؟

– وأنت يا سيدى.. ألم تذهب بدعوات لبلاد الكفار؟.. ألم

يعالجوك هناك؟ أعرف أنك زرت أوروبا وأمريكا.

– زرتهم فقط للتعرف على أحوالهم. وليس لاكتسب منهم علم الجهالة. أما مصروف الجيب بالدولار والاسترلينى فهو غنيمة.. كل ما تحصل عليه من الكفار هو حلال..

– سيدى.. لقد أفسدت علىّ لحظاتى.. ماذا تريد منى بالتحديد..؟

– أنت تحب الفراعنة ؟..

– بل أعشقهم يا سيدى.. وأتمنى أن أكون منهم.. أين أفكارى من أفكارهم؟ وأين أفعالى من أفعالهم؟ هم سادة العقل والفكر والعفة وعنوان الإيمان.. هم أول من اكتشف أن هناك عالما آخر سيحاسب فيه البشر على أفعالهم فيكافأون على أعمالهم الخيرة ويعاقبون على أفعالهم الشريرة بدخول الجحيم.. هم أول من اهتدى لحقوق الإنسان الفرد.. هم أجدادى يا سيدى؟ كيف تطلب منى التنكر لأجدادى؟ من أنت يا سيدى حتى تطلب منى ذلك؟

– قلت لك من قبل.. أنا المحتسب.

استولت على الحيرة للحظات، بدأت أكتشف أننى أشعر بالخوف، تلفت حولى، الناس تلعب السيجة، اختفى التليفزيون، اختفى موقد البوتاجاز، صاحب المقهى يستخدم الحطب، اختفى الشرطى الذى كان ينظم المرور فى التقاطع، اختفت السيارات، اختفت لافتة الطبيب، كيف حدث كل ذلك فى الدقائق القليلة الماضية؟ كيف لم انتبه لذلك.. لا يجب أن أفقد هدوئى.. لابد من التصرف بحكمة.

قلت له بهدوء.

– حسنا يا سيدى.. سأريك أنه يوجد من يحميني منك. سأشكوك للوالى فورا

نهضت من مكاني واستدعيت مكاريا كان يقف بجوار المقهى في موقف الحمير والبغال. استأجرت منه بغلا قويا وصعدت من فوري إلى القلعة. كنت أغلي من الغضب.. لحسن الحظ لم أتوقف في إشارات المرور. لاحظت أن بعض العمال يقتلعونها. لم أستغرق وقتا طويلا في الوصول إلى القلعة.. اتخذت طريقا مستقيما من وادى النيل أمام نادى الزمالك إلى ميدان سفنكس.. صعد البغل بقوة كوبرى ١٥ مايو إلى بولاق ثم إلى شارع ٢٦ يوليو حتى العتبة ثم يمينا من شارع محمد على إلى القلعة لم أشاهد سيارة واحدة أو تراما.. ترى هل مترو الأنفاق مازال موجودا؟

وأمام باب القلعة الكبير ترجلت وصحت بقوة: يا باشا.. يا سيدى الوالى.. يامحمد بن على الكبير.. لى مظلمة.. المحتسب في شارع وادى النيل يطلب منى ألا أفكر.. ويطلب منى أن أكره البحر الأبيض.

بعد لحظات خرج لى واحد من الحجاب ممتطيا صهوة فرس أبيض جميلة وقال لى: من أنت أيها الصائح؟

أنا ابن على بن محمد بن الشيخ على بن سالم.. من سكان شارع وادى النيل.. لى مظلمة.. وأريد أن أتحدث مع الوالى محمد على باشا الكبير.

وأدخلونى على الباشا.

كان الباشا يجلس أمام كمبيوتر ومعه أحد المهندسين يعلمه، كيفية استخدامه.

قال الوالى: تكلم.

- المحتسب في شارعنا يمنعنى من التفكير..

- هل قفز داخل عقلك.. وعطل عجلة التفكير فيه؟

- لا.. ولكنه يخيفنى..

– هذه مشكلتك أنت.. وليست مشكلته أو مشكلة الدولة.. ماذا تريد بالضبط؟ أن أمنعه من إخافتك.. أو أمنع الخوف عنك؟

كلاهما يا مولاى.

ماذا؟.. ماهى مصلحتى في ذلك؟

- أنا واحد من رعاياك يامولاى ومن.. ومن.. ومن..

- دعنى أكمل أنا.. من حقك علىّ أن أحميك...

– نعم يا مولاى أمد الله في عمرك

لماذا.. ماذا سأستفيد عندما أحميك؟

سأفكر بحرية يا مولاى.

– ماذا سيعود علىّ من حرية تفكيرك؟

– سيدعم نظام الحكم..

– هاها.. العب غيرها.. أنا لست أحكم بفضل أفكاركم.. ولكن بفضل أدواتى..

- حسنا يا مولاى.. لأكن صريحا.. اعتبرنى شحاذ حرية تفكير مثل شحاذ الغرام.. اعتبرنى شحاذا جئت أطلب كسرة خبز لعقلى.. وليس لبطنى.

- أنتم مفكرون مدللون، أفسدكم الحكم الشمولى.. مفكرون قطاع عام.. تريدون ممارسة حرية التفكير على حساب الحكومة..

تريدون أفكارا بلا أخطار.. التفكير فى العالم الثالث خصوصا لعبة خطرة.. لابد أن تدفع ثمن ما تفكر فيه..

- ولكنها لعبة جميلة يا باشا.

- جميلة لمن يمارسها ويقدر عليها.. ولكن لاتنس أنها تبعث بالحقد والفزع فى قلوب كل العاجزين عن التفكير.. دعك من لعبة الكلمات.. ماذا تريد بالضبط؟

- أنا أنتمى للبحر الأبيض يا مولاى.

- والنيل؟

- يصب فى البحر الأبيض.

- ماذا يعنى هذا الانتماء؟

- أريد أن أتمتع بكل ما يتمتع به سكانه من حقوق، وعلى استعداد للقيام بكل ما يُطلب منى من واجبات.

- مجانا؟

- ماذا تقصد يا مولاى؟

- يعنى ببلاش.. هل تريدنى أن أصدر فرمانا الآن بأن مصر دولة بحر أبيض.. وأن الحياة بداخلها ستكون مماثلة تماما للحياة فى إيطاليا واليونان مثلا؟

- نعم يا باشا.. أرجوك.

- يالك من مفكر غريب.. هل تعتقد أن شعوب البحر الأبيض وبقية شعوب أوروبا حصلت على ماتتمتع به الآن من حقوق الإنسان لأن فرمانا صدر بذلك؟ أو لأن واحدا أو مجموعة من البشر أرادت ذلك.. أو فكرت فى ذلك مثل سيادتك؟.

- لست أفهم ما ترمى إليه يا مولاى..

- أيها المفكر المدلل.. لماذا تفكر فى أنك بحر أبيض، دون أن تفكر فى الثمن الذى دفعته شعوب هذا البحر؟ كيف تتخلص الشعوب من الأفكار الخاطئة؟ لابد أن تعتنقها فى البداية وتتحمس لها وتسعد بها وتغنى من أجلها وترقص.. هل كانت توجد فكرة على الأرض قادرة على إقناع الشعب الألمانى بأن هتلر كان نصابا يقود شعبه إلى الجحيم وبلاده إلى الدمار..؟ كل الأفكار المؤدية للجحيم لذيذة وسهلة الهضم، وتغرى بالتخلى عن الحرية.. وبعد ذلك تأتى الفاتورة، فتدفع الشعوب الثمن لكى تسترد حريتها ولاتفرط فيها بعد ذلك.. أما حكاية «أعطنى حريتى أطلق يديا» فهى ليست أكثر من أغنية.. لا أحد يعطى لأحد الحرية.. أمازلت تطلب حرية التفكير؟

- نعم يا مولاى..

- حسنا.. فكر بحرية وفى حرية.. وادفع الثمن.. واجه المحتسب.. حارب المحتسب.. قاوم المحتسب.. وإلا كنت لصا يستولى على سلعة دون أن يدفع ثمنها.

فى تلك اللحظة دخلت مجموعة من أعيان الشام فرحب بهم الباشا مهللا:

- أهلا أهلا بأعيان الشام، رجال العلم والورع والتقوى.. شرفتمونا. هاتوا ما عندكم.

- لدينا شكوى يا مولانا جئنا نرفعها لأعتابكم..

- طلباتكم مجابة بإذن الله.. ما هى؟

- ابنكم العظيم إبراهيم باشا أطال الله عمره بعد أن فتح الشام

فتحا مباركا، أصدر فرمانا بأن أهل الكتاب من حقهم أن يركبوا الخيل والبغال مثلنا تماما.

– وماذا فى ذلك؟

ـ لقد ألغى بذلك تقليدا قديما وموروثا عظيما وعرفا راسخا.

– كل التقاليد تتغير بفعل الزمن لصالح البشر.

ـ ولكن ذلك ليس فى صالحنا يا مولاى..

– لماذا؟

ـ عندما يركب أهل الكتاب الخيل فسيكونون أكثر ارتفاعا منا.. لأننا نركب الحمير أحيانا.

– وأنتم تريدون أن تكونوا الأكثر ارتفاعا؟

ـ طبعا يا مولاى.

وهنا أخذ الباشا يفكر بعمق، وفجأة صاح:

– بس.. لقيتها، أهل الكتاب يركبون الخيل وأنتم تركبون الجمال فتصبحون أكثر ارتفاعا منهم.. ما رأيكم.. أليست فكرة سديدة وعظيمة لا تصدر إلا عن عبقرى مثلى؟

وسكت رجال الوفد، لا أحد على الأرض يجرؤ على مصارحة الباشا بأن فكرته ليست سديدة وعظيمة.. وبعد أن خرجوا غمز لى الباشا بعينه وقال:

– هذا الوفد جاء لغرض آخر غير معلن.. لقد جاءوا ليعرفوا منى عن قرب ووجها لوجه أين أقف أنا. فى كل مجتمع وفى أى لحظة من لحظات التاريخ توجد قوتان.. قوى التأخر، وقوى التقدم.. السؤال هو: مع من يقف الباشا؟ عندما يقف مع التقدم بوضوح

وحسم لابد أن يسود التقدم.. والآن يا عزيزى المفكر.. اتفقنا؟

– على إيه يا مولاى؟

– أن تدفع ثمن حرية تفكيرك..

– كنت أتصور أنك ستعفينى من دفع الثمن..

– عمليا لست قادرا على ذلك صدقنى.

– حسن يا مولاى.. هل تسمح لى بتقديم طلب للالتحاق بعصرك، هل تسمح لى بدخول القرن التاسع عشر.

– ولكن أهلك فى طريقهم لدخول القرن الحادى والعشرين.

– سيدخلون راكبين نتيجة الحائط فقط..

– يا عزيزى المفكر.. أنت تحاول خداعى مرة أخرى.. لن أوافق على طلبك.. على الناس أن تكافح من أجل دخول العصر الذى تريده.

كان الباشا كريما معى.. أعطانى صرّة وعباءة وجارية وبغلا جديدا على الزيرو، وعدت إلى شارعنا، وادى النيل.

فى تلك الليلة مر على المحتسب وسألنى: أما زلت تفكر فى البحر الأبيض؟

– بل أفكر فى شىء آخر أكثر أهمية.. أنا أفكر فى دعوتك لقضاء لحظات هانئة فى غرزة فى الدراسة.

– وأنا قبلت الدعوة.

منذ تلك اللحظة أصبحنا صديقين.. امتنعت عن التفكير.. وامتنع هو عن مضايقتى.



رفضت محكمة النقض الاستشكال المقدم مني وتأيد حكم الاستئناف بالتفريق بيني وبين زوجتي السيدة صفية عبدالعزيز العجرودي.

كان الرفض شكلا لورود الاستشكال بعد الموعد المحدد بربع ساعة، المحامي كان السبب. كنا نجلس على المقهى المواجه لمبنى المحكمة ندردش في لاشيء، عندما استعجلته في تقديم الاستشكال قال لي بهدوء وهو يجذب أنفاسا من الشيشة. ماتخافش.. فاضل ساعة.. لابد أن نقدمه في اللحظة الأخيرة لكي نربك الخصوم.

لم يكن يعرف، ولا أنا انه قد بدأ العمل بالتوقيت الصيفي، وأن الزمن قد تقدم ساعة بأكملها قبل منتصف الليلة الفائتة.

بعدها قال لي بنفس الهدوء: لاتنزعج. مازال في جعبتي الكثير لن نسمح لهم بالانتصار علينا.

* * *

أحكي لكم من البداية. بدأت القضية ببلاغ من محتسب حي المهندسين اتهمني فيه بأنني صديق للشيطان، وأنه شاهدنا بنفسه نتناول السندوتشات معا في محل «ومبي»، وفي أقواله أمام احتسابية نيابة الجيزة أكد انه لم يسمعني أنطق «البسملة» قبل أن أتناول طعامي، وهذا دليل على أن الشيطان كان يأكل معي، وأضاف دليلاً آخر. لقد طلبت سندوتش جمبري وواحد بطاطس شيبسي وسندوتشين همبورجر وواحد فراخ، من المستحيل على شخص واحد أن يأكل كل هذه الكمية من الطعام، وهذا دليل على أنني كنت على وعي مسبق بأن الشيطان سيتناول طعامه معي، ولابد أن الدعوة كانت من جانبي لأنني دفعت الحساب.

وكيل النيابة صوته هامس رقيق وملامح وجهه طيبة. حمدت الله على ذلك. سألني ماهو قولك فيما هو منسوب إليك؟

لم يحدث. هذه الوقائع غير صحيحة، لقد تربيت وتعلمت وتعودت على أن أقول «بسم الله الرحمن الرحيم» قبل أن أبدأ تناول طعامي، وقبل أن أبدأ كتابة مسرحية، وقبل أن أبدأ كتابة مقال وقبل أن أفعل أي شيء.. المحتسب ليس لديه شهود على ما يقول.

- هو ليس بحاجة لشهود.. فلديه صفة الضبطية القضائية الاحتسابية.

- وأنا لدى صدقي.. لقد قلتها هامسا.

- هل هناك احتمال بأنك قلتها في سرك ؟

- لا. قلتها هامسا.. أنا أذكر ذلك جيدا.. أنا واثق أنه لم يسمعني.. أنا أدفع بذلك.

- المحتسب مدرب على سماع دبيب النمل على بعد عدة أمتار، وكل محتسب حاصل على شهادة بذلك من قسم الأذن والحنجرة بكلية طب القصر العيني. هذه الشهادة هي أول مسوغات تعيينه في هذه الوظيفة.

- محل «ومبي» مليء بالضجيج، الناس جميعا تأكل وتتكلم، والموسيقى صاخبة، من المستحيل أن يسمعني عندما أهمس.

- كان المحتسب يجلس على المائدة المجاورة لك مباشرة، وطبيعة عمله تقتضي التقاط الهمسات وسط الضجيج، هذا هو تخصصه الدقيق، هل تعتقد أننا نسمح لكل من هب ودب بشغل هذه الوظيفة، إنه لا يستطيع الحصول على شهادته إلا بعد المرور بامتحانات عسيرة للغاية. منها انه يكلف في الامتحان العملي بالتقاط همسات البشر في مصنع الحديد والصلب وفي عدة أماكن تتسم بالضجيج العالي.. أما في اختبارات الماجستير فهو يُكلف بالتقاط همسات الدرجة الثالثة بينما هو جالس في المقصورة في مباريات الأهلي والزمالك.

- والدكتوراه؟

- يحصل عليها عندما يتمكن من التقاط الهمسات في ميدان معركة حربية تنطلق فيها المدفعية والقنابل وتزمجر فيها المدرعات والقذائف.. هل مازلت تدفع بأنه لم يسمعك؟

- نعم.. هو لم يسمعني.

- هل تعرفه؟ هل هناك خلافات بينك وبينه أو خصومة أو عداوة أو منازعات؟

- لا أعرف.. لعلى كتبت شيئا لم يعجبه.

- هل تتهمه بأنه مغرض.. أو أساء استغلال وظيفته؟

- لا.. هو فقط لم يسمعنى.

- وماذا عن بقية المحتسبين، هناك عدة بلاغات أخرى محفوظة فى ملفك، هذا بلاغ من محتسب السيدة زينب.. بنفس الواقعة.. وكلها فى وجبة العشاء.. عند الجحش صاحب مطعم الفول.. وعند أم هاشم.. وعند محمد رفاعى الكبابجى، وعدة مرات فى الناصرية وأنت تأكل البمبار والطحال ولحمة الرأس.. هل تقول إن كل هؤلاء المحتسبين لم يسمعوك؟

- ......

- لماذا تطلب دائما كمية من الطعام تكفى شخصين؟ أليس ذلك دليلا على أن الشيطان يأكل معك؟

- لا.. هذا دليل فقط على أننى أكول.

- ولماذا أنت أكول؟.. أليس معنى ذلك ببساطة ووضوح أن بداخلك مخلوقا آخر يشاركك طعامك وشرابك؟

- نعم.. قد تكون ديدانا وليس الشيطان.

- هل تتصور أننا نتنكر للعلم، أو نتجاهله، أو لانتخذه منهاجا فى عملنا؟.. لقد تم إجراء عدة تحليلات لك وتأكد لدينا أنه لاتوجد ديدان فى أمعائك أو معدتك.. ياعزيزى، أنت شخص نبيل وطيب، لماذا لاتعترف وتريح ضميرك لنغلق هذا المحضر.. دعنى أسألك: هل تؤمن بوجود الشيطان؟

- نعم ياسيدى، هو موجود. ولكنه لا يوجد بمعزل عن البشر،

هو يمارس عمله داخل البشر، هو لايسكن الحقول والمزارع ومياه الأنهار والبحار.. هو يمارس مهامه مع البشر فقط.

- أراك على معرفة واسعة به.. ما مصدر هذه المعرفة؟ هل عاشرته طويلا؟

- لست وحدى الذى عاشره طويلا.. قلت لك هو موجود داخل البشر.

- أنت تعرف بالطبع ما حدث للأستاذ الذى أنكر وجوده.

- هو لم ينكر وجوده.. هو أنكر أن يكون موجودا بالصورة التى يتخيلها العوام.. القرنان والأعين المشقوقة وأرجل الماعز، والذيل الذى ينتهى بحربة.. أنا أيضا أؤكد وجوده.. بل وأؤكد أنه السبب فى كل شرور الناس.

- جميل.. تقول إنه يسكن بداخلك؟

- وبداخل كل الناس.

- لم تقدم لى بلاغات ضد كل الناس.. أنا أحقق معك أنت.. هل هو يسكن بداخلك؟

- نعم، ولكن بغير موافقة منى أو ترحيب.

- هل تعتقد أنه نجح فى الإيحاء لك بارتكاب بعض الشرور؟

- نعم، ومنها التدخين، أنا أعرف أن التدخين ضار بالصحة ومع ذلك أدخن.. كما أعترف أننى أشرب زجاجة بيرة مثلجة أحيانا عندما يشتد الحر.

- زجاجة واحدة؟

- أحيانا أشرب زجاجتين.

ـ نعم، هذا ما أكدته التحريات.. زجاجة لك وزجاجة له.. ما هى بقية الموبقات التى دفعك لارتكابها؟

– لم يدفعنى لارتكاب موبقات.. أو لعله دفعنى ولم ينجح فى ذلك.. أو على الأقل فشل حتى الآن فى إقناعى بالتخلى عن اعتناق فكرة الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان الفرد.

ـ من المعروف عن الشيطان أنه عبقرى وقادر على التنكر فى أى هيئة وأى شكل وأى فكرة.. أليس من الجائز أنه وسوس لك بهذه الأفكار؟

– مستحيل، إلا إذا كان قد قرر أن يعمل ملاكا للخير.. هذه هى الأفكار التى تجلب الخير للبشر.. من المستحيل أن تكون من صنع الشيطان.

ـ قد يتبناها مرحليا بدافع من عبقريته ليضمك إلى حظيرته.

– لا.. لسبب بسيط، أنا أكثر منه عبقرية.

ـ لايوجد دليل على ذلك.. أقول لنفرض أنه كان الموحى بهذه الأفكار، هل تعتنقها؟

– نعم.

ـ بالرغم من أنها من صنعه؟

– نعم.

ـ مهما كانت العواقب؟

– نعم.

ـ هل لديك أقوال أخرى؟

– نعم، الاعتراف بوجود الشيطان خارج الإنسان، والاعتراف

بقدرته العبقرية التى لا تقاوم ليست إلا وسيلة للإعفاء من مسئولية العقل الإنسانى وقدرته على هزيمة الشر.. وسيادة مثل هذه الأفكار ببساطة تعنى الخراب للجميع وازدهار الجريمة بكل أنواعها.. ما أسهل أن يقول أى مجرم لقد وزنى الشيطان.

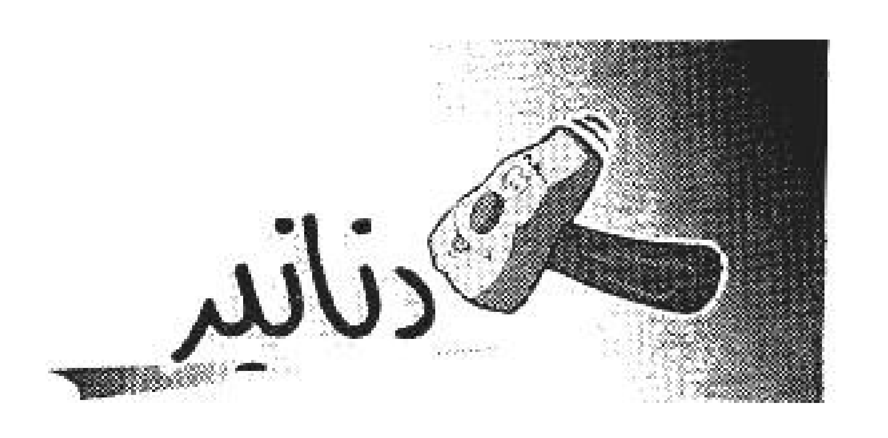
يلتفت ناحية من يدون أقوالى:

ـ اكتب ياسيدى.. اعترف المتهم بأن الشيطان يقيم بداخله.

وأغلق المحضر ساعة تاريخه، يستكمل التحقيق فيما بعد.

تمت أقواله ووقع.

***



حدثنا عطية الفكهانى فقال:

ذات يوم اتهمنى أحد صغار المحتسبين بأننى بعت بطيخة قرعاء ثم ساقنى بالقوة الجبرية إلى قاضى القضاة، وتصورت فى البداية أن عقوبتى لن تتعدى عدة مقارع على ظهرى أو غرامة صغيرة، لكن لسوء حظى كان قاضى القضاة معيناً حديثاً من الباب العالى ولا يعرف حرفا واحدا من اللغة العربية، ولكى يكتمل سوء حظى عينت له الحكومة السنية ترجمانا لايجيد اللغة التركية. وكانت الناس تقول عما صدر عنه من أحكام العجب العجاب، شرح له المترجم الواقعة فرد عليه بهمهمة خافتة، وفوجئت بالمترجم يقول لى: روح طلق مراتك.

- ومراتى مالها ياسعادة الترجمان؟
- مش بتقول قرعاء..
- لاياسعادة الترجمان.. القرعة هى البطيخة وليست زوجتى.

إن أجمل وأطول ما في زوجتي هو لسانها وشعرها، وهي ابنة الشيخ المحروقي تاجر النحاس ولم تفعل مايغضبني..

- اسمع فلد خرسيس نرسيس.. مش مراتك اسمها بطيخة؟
- لا ياسعادة الترجمان.. اسمها صفية..
- اسمع فلد.. ماتضيعش وقتنا.. اتفضل روح في داهية.

همس أحد الأشخاص في أذني: اخرج.. أخرج من سكات وإلا يحكم بخوزقتك.. لقد فعلها بالأمس مع أحد التجار.. روح طلق مراتك..

ذهبت من فوري إلى حماي المعلم المحروقي في حي النحاسين وأخبرته بما حدث وأنا أبكي من العجز والقهر. كان حماي رجلا حكيما وخبيرا ومثقفاً بثقافة الأولين، استمع إليّ صامتا ثم انشغل عني مع الزبائن لا أقل من ساعة، وأخيرا سحبني من يدي إلى غرفته الخاصة خلف الدكان وطلب القهوة والشيشة ثم قال بهدوء: لاتوجد على الأرض مشكلة تستعصي على الحل.. لكل قانون ثغرة، ولكل ثغرة قاعدة، ولكل قاعدة طريق يلتف حولها.. تسلح بالهدوء والذكاء.. أولا عليك بتنفيذ الحكم فورا.

- ولكني أحب زوجتي.. ولا أتصور الحياة بدونها
- عارف يابني.. عارف.. اسمعني للآخر.. أعرف أنك تحب الحواديت.. خصوصا حواديت الغرام التي تقول فيها المرأة للرجل: ماحدش ها يفرقنا إلا الموت.. هذا كان يحدث في الزمن القديم.. الموت الآن لم يعد وحده هادم اللذات ومفرق الجماعات.. اسمعني جيدا.. ستفترق عنها بوصفها زوجتك ثم تعيش معها بوصفها جاريتك.

- مش فاهم... إزاي؟
- سنستدعيها الآن من البيت فورا.. ونستدعي المأذون وتطلقها.
- إن أبغض الحلال عند الله الطلاق..
- طبعا يابني طبعا.. ولكن اسمعني.. بعد أن تطلقها سأذهب على الفور إلى المعلم عبود تاجر العبيد وأبيعها له بأي ثمن وبعد أن أخرج من عنده تدخل أنت وتشتريها بعقد بيع وشراء معتمد وموقع ومختوم من شيخ الحارة.. لاتدع الوقت يسرقنا.. اليوم هو الخميس وغدا الجمعة والمحتسب لن يأتيك لتنفيذ الحكم قبل صباح السبت.. من هنا ليوم السبت سنقوم بتنفيذ خطتنا كاملة.

* * *

عندما عرفت صفية الحكاية أخذت تبكي وتندب وتلطم وتمزق شعرها وثيابها وأنا أحاول عبثا تهدئتها، وأخيرا تمالكت نفسها وقالت: ألا توجد طريقة أخرى؟.. ألا يوجد حل آخر؟.. ألا يمكن أن تصل إلى الباشا ونشكو له..؟

- اسمعيني ياصفية يابنتي.. ماتعقديش المسألة.. لا داعي لإغضاب الأكابر.. المسألة حلها بسيط.. سأبيعك ويشتريك زوجك في نفس الليلة.. بعدها بدقائق..
- لابد من اتفاق واضح مع عبود بتاع العبيد.
- بالعكس.. لو عرف إن احنا عاملين كومبينة حايطمع.. لكن هو في النهاية تاجر.. أنا حافهمه إني بابيعك عشان ظروفي وحشة وعاوز اشتري دكان.

- آفرض مارضاش يشتريني.. افرض السوق واقف..

- التاجر الشاطر يشترى والسوق واقف.. وأنا مش حادقق معاه فى السعر.. وإن ماكانش هو تروح لحد تانى.

وهنا تدخلت فى الحوار وقلبى يتمزق: أجى معاكم؟

- لا.. خليك انت.. عشان مايشكش.

استدعينا المأذون وطلقت صفية أمام اثنين من الشهود تجار الفاكهة من أصدقاء حماى ثم خرجت معه إلى وكالة عبود.. عرفت فيما بعد أن عبود رحب بها ثم دار بينهم الحوار التالى:

- أهلا بجاريتنا الحلوة.. أهلا يامعلم محروقى.. عاوز فيها كام؟

- المعقول.

- إنت شاريها بكام؟

- دى بنتى.

- يانهار أبيض يامعلم محروقى.. عاوز تبيع بنت الأصول؟

وهنا أخذت صفية تبكى وتنهنه، ورد حماى: الظروف.. محتاج فلوس.. وأصلها اتطلقت ومش عاوزها تعمل لى متاعب.. مش فاضى لها..

- تعرفى تغنى؟

- لا..

- تعرفى ترقصى؟

- لا..

- تعرفى تحكى حواديت وتقولى أشعار؟

- لا.

- تعرفى تطبخى..

- طول عمرى عندى طباخ..

- أمال تعرفى تعملى إيه؟

- أعرف اقرا واكتب.

- يانهار أسود إوعى تقولى الحكاية دى لحد.. إوعى حد يعرفها.. حاتوقفى سوقك.. تعرفى تعزفى على العود؟

- لا

- تضربى طبلة؟

- بسيط

اكتأب عبود وقال لحماى: أنا مش عاوز أقول لك يفتح الله.. إنت عاوز فيها كام؟

- خمسين دينار.

- شوف يامعلم.. خدها ولف بيها فى السوق.. واتعرف على الأسعار.. البلد حالها واقف اليومين دول.. أنا عندى بضاعة أحسن منها وأصغر منها وأجمل منها.. وتغنى وترقص وتقول نكت وحواديت.. ومستعد أديها لك بعشرة دنانير بضاعة حاضرة..

- عاوز تدفع كام؟

- هم ستة مفيش غيرهم..

- أمرى إلى الله.. لاحول ولا قوة إلا بالله.. طب خليهم سبعة..

- هم الستة وتبقى غلبتنى..

- اتفقنا.. نكتب العقد..

بعد أن أنصرف حماى من عنده دخلت أنا..

- أنا شفت من شوية واحد باع لك جارية.

- أيوه.

- عاوز اشتريها.

- اشمعنى؟

- أنا حر.. عاجباني.

- وانت شفتها فين؟

- ماشفتهاش.. شكلها كده وهى ماشية عجبنى.. إنت اشتريتها بستة.. مستعد أدفع لك عشرة.

- مش حابيعها دلوقتى.. دى حاتتشد وتتوضب وتتسقع وبعدين تتعرض للبيع.. فيه ناس ممكن تدفع فى النوع ده مائة ألف دينار.

وأغمى علىّ.

بعد أن أفاق عطية طلب منه المعلم عبود أن يحكى حكايته فحكاها، غير أن تاجر العبيد الذى لاشك قد سمع من قبل آلاف الحكايات التى تمزق القلوب، لم يهتز له جفن ورد عليه: اسمع يابنى، وراء كل عملية بيع وشراء جارية توجد حدوتة موجعة، ولو أن الإنسان تأثر بمثل تلك الحواديت لترك المهنة منذ زمن طويل.

- يامعلم عبود.. أفعل خيراً مرة واحدة فى حياتك.

- لست أفعل سوى الخير فى حياتى.. اذهب وزُرْ هؤلاء الذين اشتروا منى جاريات.. متعة بالنهار وفرحة ولذة وبهجة بالليل.. لم يحدث أن غششت أحدا فى بضاعة.. ولم يشكنى أحد من قبل..

- تشتريها بستة دينارات وتريد أن تبيعها بمائة ألف؟

- إنها حرية التجارة يا بنى.

- بهذا المكسب الفاحش؟

- وعندما تشترون متر الأرض بربع دينار وتبيعونه بعشرة آلاف.. الا يكون المكسب فاحشا فى هذه الحالة؟ أنا لم أضرب أحدا على يده عندما اشتريتها ولن أرغم أحدا على شرائها. اشتريتها طبقا لقانون السوق، العرض والطلب، وسأبيعها طبقا لنفس القانون..

- وماذا عن الظروف الإنسانية؟

- ما أفعله هو منتهى الإنسانية.. لماذا تتجاهل الحقائق، هى لاتغنى، ولاترقص ولاتعزف ولاتحكى الأشعار والنوادر والمُلح.. ولاخبرة لها بالمطبخ. ونحيلة مثل عود القصب، لماذا لاتحمد الله على أنك تخلصت منها؟ لاتنس أن أموالاً كثيرة ستنفق على تعليمها وتدريبها.

- صفية سترفض التعليم والتدريب.

- كلهن يرفضن فى البداية ولكن الكرباج سره باتع، وعلى فكرة اسمها الآن ليس صفية.. لابد من اسم فنى جذاب.. لقد اخترت لها اسم دنانير..

- ليس من حقك ياسيدى أن..

- لاتفقد أعصابك فتفقدنى أعصابى من فرط جهلك.. من حكم فى ماله فما ظلم.. هى ملكى الآن.. بضاعتى.. سلعتى.. وأنا لا أتجاوز الأصول.. لابد من اسم جذاب لأى سلعة على الأرض.. الناس تتفاءل ببعض الأسماء ومنها دنانير.

- حسنا ياسيدى.. أنا الآن أتوسل إليك.. اسمح لى أن أنحنى على قدميك أقبلهما، والله لن أنسى لك هذا الجميل ما حييت.

- يالكثرة عدد السذج على الأرض.. يابنى. هناك قوانين تحكم السوق.. نحن لا نبيع ونشترى البطيخ والشمام.. نحن نعمل فى سلعة هامة للغاية.. البشر. لقد تم تسجيلها بكل مواصفاتها فى الدفتر الخاص ببيت المال.. الحكومة لها نصيب فيها الآن.. وليس من حقى أن أبيعها بعيدا عن المزاد الذى يحضره خبير مثمن من بيت المال منعا للتلاعب وقضاء على الاحتكار... من حقك فقط أن تعاينها قبل المزاد بيومين.

- أعاينها يا سيدى؟ لست فى حاجة إلى ذلك فأنا أعرفها جيدا.

- تعرف صفية ولكنك لاتعرف دنانير.. لا أحد يعرف دنانير..

- حسنا ياسيدى.. لى الآن مطلب بسيط لا أعتقد أنه مخالف لقواعد المهنة أو قانون السوق.. هل تسمح لى أن أراها لعدة دقائق. لابد أن أحكى لها ما حدث.

- ليت فى وسعى ذلك.. يستحيل، لأنها فى مرحلة التلقين.. هى مرحلة لابد منها خصوصا لمن كانت حرة مطلوب تحويلها إلى جارية.. ممنوع منعا باتا أن تقابل أى شخص ما عدا هؤلاء المكلفين بتلقينها..

- تلقينها؟ ماذا ستلقنونها؟ وكيف؟ ومن سيلقنها؟

- مجموعة كبيرة من الأساتذة الأجلاء والنساء المجربات الخبيرات سيشرحون لها مساوىء الحرية، وأن من الأمور المكروهة والسيئة أن يكون الإنسان حرا.. وأن السعادة كل السعادة فى العبودية ،وأن وظيفتها الوحيدة على الأرض هى توفير المتعة للرجل

القادر على شرائها. هى الآن فى مرحلة إعادة التأهيل، بالنسبة لها سيكون الأمر صعبا للغاية لأنها تقرأ وتكتب.. لابد من تنظيف عقلها من كل ما قرأته من قبل، ثم إعادة حشوه بما هو مفيد لها وللمشترى..

- كنت أعتقد أن عملكم أبسط من ذلك بكثير.

- لسنا نتاجر فى البطيخ.. نحن نتاجر فى البشر كما قلت لك، وأى خطأ فى عملنا قد يترتب عليه كارثة.. ليس من المهم أن يؤمن الرجل بأن المرأة جارية.. لابد أن تؤمن هى حتى النخاع أنها جارية.. لابد من تطهير عقلها من أى ذرة حرية، البديل الوحيد لذلك، أو فى حالة الإهمال فى تحقيق ذلك.. أن يدفعها الإحساس بالحرية إلى أن تثور على من اشتراها فى لحظة غضب وقد تقتله فأفقد أنا سمعتى.

- لا أعتقد أنه توجد طريقة على الأرض تمنع البشر من الغضب.

- نعم، ولكن توجد طرق للتعبير عنه تتفق والعبودية.. الحرة تتألم عندما يغضبها رجلها وقد تثور.. أما الجارية فهى ترقص له عندما يكشّر عن أنيابه وتزداد إقبالا عليه عندما يضربها.. المعاملة السيئة تزيدها حلاوة وطلاوة وتفجر مواهبها كأنثى..

- كفى يا سيدى أرجوك.. أنا لن أغفر لنفسى ما فعلته بنفسى وبزوجتى.. وسأخلصها منك حتى لو اضطررت لقتلك.. سأخرج من فورى إلى الباشا وأهد مملكتك على رأسك.

- هذه الجملة سمعتها من قبل مائة مرة على الأقل.. اتفضل روح للباشا.. قل له إنك احتلت وزوّرت وغششت وحاولت الافلات من حكم قاضى القضاة.

- وخرج بطلنا مطأطىء الرأس يجر قدميه جرا وقد أسودت الدنيا فى وجهه.

والحق يقال، كان الباشا فى القلعة يقابل صاحب أى مظلمة، فقد كان حريصا على إشاعة العدل فى شعبه، ولم يكن يتورع عن إنزال أشد العقاب بأى شخص من موظفيه إذا ثبت أنه أخطأ فى حق مواطن..

يحكى لنا عطية الفكهانى عن لقائه بالباشا فيقول:

– مجرد ذكر اسم القلعة كان يبعث الرعب فى القلوب، فذات يوم دخلها خمسة آلاف مملوك تتفجر أجسادهم بالحيوية وعقولهم بالبطش ولم يخرج منهم أحد على قدميه، ولكنى استجمعت ما بقى من شجاعتى وذهبت إلى هناك، لحسن حظى كان الباشا فى حالة مزاجية عدلية رائعة، ويبدو أنه كان فى حاجة لمظلوم يرفع عنه الظلم. بعد طابور طويل من الحجاب وأمناء السر أدخلونى على الباشا فى قاعة كبيرة، نظر إلى بترحيب خفيف فقلت له: أطال الله عمرك ياباشا..

– أشكرك ادخل فى الموضوع.

– أصدر قاضى القضاة حكما بالتفريق بينى وبين زوجتى صفية المحروقى.. وأنا أؤكد لك ياباشا أنه لم يقرأ أوراق القضية جيدا.. فأنا متهم باننى بعت للمحتسب بطيخة اتضح فيما بعد أنها قرعاء، والواقع أننى لم أبعه شيئا فأنا لا أعمل فاكهيا، اسمى هو الفكهانى لأن أجدادى كانوا فكهانية.. أنا أعمل نجاراً.. باب وشباك ومشربية، هذا هو تخصصى..

– وكيف حدث هذا اللبس والالتباس.. كيف تم القبض عليك؟

– كنت أجلس فى دكان صديقى شحاته القليوبى تاجر البطيخ عندما جاء المحتسب وسأل: من منكما الفكهانى؟

فأجبته بمرح وود وظرف متصورا أنه مثلنا ابن نكتة: كلانا.. أنا فكهانى اسما وهو فكهانى فعلا.. ففوجئت به يمسك بخناقى ويكيل لى الضربات: وبتتفلسف كمان يا ابن الـ..... ماتعرفش إن الفلسفة ممكن تحطك على الخازوق..

–وماذا حدث لصديقك الفكهانى فعلا؟

ـ لاأعرف يامولاى.. قبضوا عليه بتهمة أخرى، فقد عثروا فى الدكان على آثار بن وبقايا قهوة فى كنكة واتهموه بأنه يشرب القهوة، ولا أعرف حتى الآن ماذا فعلوا به..

وهنا نظر الباشا متسائلا لواحد من الحجّاب فرد عليه: هو متهم بالإلحاد يامولاى. وقد تمت استتابته فتاب وأناب..

– وأفرج عنه؟

–لاياباشا.. لاتكفى توبته.. لابد أن يتقيأ كل ما شربه من قهوة من قبل.. هو الآن مسجون إلى أن يتم ذلك..

– وهل شرب القهوة حرام فعلا؟ هل معنى ذلك أننى أرتكب الحرام كل يوم؟

– لا ياباشا.. محتسب منطقة القلعة لا يعتبرها كذلك.. بينما محتسب الغورية وهى محل إقامة المتهم يصر على أنها حرام.

سكت الباشا عدة لحظات ثم قال: أفرجوا عن المتهم، وانقلوا محل إقامته فى البطاقة إلى سجل القلعة واصرفوا له خمسة أرطال بن محوج من البن السلطانى.

– أمرك ياباشا..

– حتى الآن لا أعرف لماذا صدر الحكم بالتفريق بينك وبين زوجتك؟

ـ هل تسمح لى ياباشا أن أكون صريحا معك؟

– اتفضل..

ـ قاضى القضاة لا يجيد اللغة العربية والترجمان لا يجيد اللغة التركية.. ولقد رفضا أن يسمعانى.

– وأنت الآن تطلب منى أن أصدر أوامرى لقاضى القضاة بأن يعيد النظر فى قضيتك. أليس كذلك؟ اسمع أيها النجار العبيط.. أنا وقاضى القضاة، كلانا معين من الباب العالى.. لاسلطة لى عليه.. اذهب واشكه للباب العالى.

ــ يامولاى.. لقد حدث تطور خطير خرج بالقضية من يد قاضى القضاة نفسه.. لقد اقترح حماى أن أنفذ الحكم فورا فأطلقها ويبيعها هو ثم أتقدم أنا وأشتريها..

– آه.. آه.. فهمت، هى حيلة قانونية للإفلات من حكم القضاء.

ـ نعم يامولاى..

– أى أنك تحايلت على القانون لتنفيذ القانون.

ــ احتلت على حكم قاضى القضاة الذى لم يفهم القضية يامولاى.

– مش مهم.. يعنى أنت وجدت أنه من المستحيل نتيجة للحكم أن تعيش مع امرأتك كزوجة وأن المتاح فقط هو أن تعاشرها كجارية..

ـ نعم يامولاى..

– جميل.. ماذا حدث بعد ذلك؟

ـ طلقت صفية.. وهكذا أكون قد نفذت الحكم وأصبحت هى «ملكا» لأبيها المعلم المحروقى.. وباعها أبوها بعقد صحيح. ودخلت أنا لأشتريها من عبود تاجر العبيد.

– فرفض أن يبيعها لك..

ـ هذا بالضبط ما حدث يامولاى.. لقد اشتراها بستة دنانير ورفض أن يبعيها بعشرة..

– طبعا.. من الواضح أنك لاتفهم فى التجارة ولا فى قوانين السوق..

ــ أنا نجار باب وشباك ومشربية.. مشربيات كثيرة فى هذا القصر تحمل توقيعى.

– لقد اشترى إنسانة حرة، لذلك دفع مبلغا بسيطا.. ستة دنانير.. هذا هو سعرها فى السوق.. الرجل لم يغشك.. بعد ذلك سيحولها إلى جارية.. تحويل الأحرار إلى عبيد يتكلف جهدا كبيرا ومبالغ طائلة.. بذلك يكون من حقه أن يبيعها بالشىء الفلانى.. ماهى المشكلة الآن؟

ـ أريد زوجتى يامولاى.

– ليست زوجتك.

ـ حسنا، أريد مطلقتى.. أريد أن أعيدها لعصمتى.

ـ عصمتك؟.. العصمة، يالها من كلمة جميلة مضى زمن طويل منذ أن سمعتها لآخر مرة، صاحب العصمة وصاحبة العصمة.. صفات لبشر لم يعد لهم وجود.. المشكلة الحقيقية أن هذا عصر لا يعرف العصمة..

ـ حسنا يا مولاى.. بلاش العصمة.. أريد أن أعيدها إلى ذمتى..

– ذمتك؟ ولماذا لم تكافح من أجلها عندما كانت على ذمتك؟ لماذا تطوعت أنت بتنفيذ الحكم؟ لماذا لم تهرب من دار لدار ، ومن بلد لبلد،

ومن قـــرية إلى قـــريــة مــدافعــا عمن فى ذمتـك؟ لماذا اخترت طـريق الاحتيال؟

ـ هو الأقصر يامولاى..

ـ لا . بالعكس ، الاحتيـال.. هو أطـول طريق فى الـدنيا.. اسمع يابنى، لا أستطيع التدخل فى صفقة قانونية تماما ولا أستطيع التدخل فى عمل قاضى القضاة..

ـ وماذا عن العدل يامولاى؟

ـ تتخلى أنت عن العدل وتطالبنى به؟! كيف سمحت لنفسك بتحويل زوجتك من حرة إلى جارية؟

ـ كنت واثقا يامولاى أننى سأشتريها بعد دقائق أو حتى دقيقة واحدة.

ـ كيف تسمح لنفسك بتحويل إنسان حر إلى عبد لمدة دقائق أو حتى دقيقة واحدة، إن أكبر خدعة فوق الأرض هى أنه بوسع أى إنسان أن يكون عبدا بإرادته لعدة دقائق ليكون حرا بعد ذلك.. تخل عن حريتك لأى سبب، عندها سينقض عليك كل تجار العبيد فى الدنيا ويحولونك لغانية تعسة..

ـ وماذا أفعل الآن يامولاى؟

ـ انتظر المزاد.. وإلى أن يحين موعده، سأصرف لك جارية من مخزن الحريم السلطانى على سبيل العهدة، ستختارها بنفسك.. هل تحبها بيضاء أم سمراء..؟ نحيلة أم بدينة؟

ـ والله يا مولاى.. البيض الأماره والسمر العذارى كويسين. وياريت تكون ممتلئة قليلاً.

ـ ماشى..

وصرف لى الباشا الجارية، ومرت الأيام معها بسرعة البرق. أعترف أن فيها ميزات كثيرة لم تكن موجودة فى زوجتى. وحضرت المزاد، لم تكن صفية التى أعرفها، كانت أنثى أخرى. كانت أجمل امرأة فى الوجود، ناديت.. صفية، نظرت إلى بعينين ساحرتين زجاجيتين وكأنها لاترانى. وقف الخبير المثمن يعدد مزاياها، غنت ورقصت وعزفت على العود وقالت أشعاراً لأبى نواس تحمر لها الوجوه، كان معى خمسة آلاف دينار، فتح المزاد بخمسين ألف، شعرت بنفسى أتضاءل وأتحول إلى لاشىء.. ستين ألف.. مين قال سبعين.. ثمانين ألف.. مائة ألف.. مائة وعشرة.

اشتراها تاجر عجوز تخطى التسعين من عمره ودفع ربع مليون دينار.

خرجت وراءه، وعندما مرت بى همست لها: صفية.

لم تعرنى التفاتا وسارت فى طريقها خلف المشترى لا تلوى على شىء!.



(جـرس الباب، الـزوج ينظر في العين السحـريـة، يفـاجأ، زوجته خلفه)

الزوجة: مين؟

الزوج: واحد ظابط ومعاه عساكر.

الزوج : مين..؟

صوت: العقيد عبد الواحد من وحدة تنفيذ الأحكام.

(الزوجة تختفي داخل الشقة، الزوج يفتح).

(الضابط يوجه حديث لأشخاص لانراهم)

الضـابط. واحد يقف قـدام بـاب الشقة.. وواحـد على السلم.. واتنين **يقفـوا** قـدام بـاب البيت.. وواحـد يقف على النـاصيـة في آخـر الشارع.

(يدخل الضابط ممسكاً بحقيبة صغيرة)

الضابط: حضرتك الأستاذ وحيد فكّار؟

الزوج: أيوه..

الضابط: وأنا العقيد عبد الواحد من وحدة تنفيذ الأحكام.

الزوج: أهلاً وسهلا.. اتفضل.. قهوة، شاى، حاجة ساقعة؟

الضابط: شكرا.. ولا حاجة.. أنا آسف على الازعاج.

الزوج: لا أبدا، تحت أمرك.. حضرتك يعنى.. معاك..

الضابط: أمر من النيابة؟.. لا.. لأنى مش جاى أقبض على حضرتك.. ولا جاى أفتش الشقة.. أنا جاى أنفذ حكم نهائى.

الزوج: لسه الحكم ما بقاش نهائى.. فيه طعن أمام محكمة النقض..

الضابط: صدر النهاردة الصبح.. أنا آسف.

الزوج: يعنى..

الضابط: أيوه.. صدر الحكم النهائي بالتفريق بينك وبين زوجتك السيدة إحسان عبد الله.

الزوج: قهوتك إيه؟

الضابط: على الريحة..

الزوج (صائحاً): اعملى لنا قهوة يا إحسان واحدة سادة وواحدة على الريحة..

الضابط: صدقنى أنا آسف..

الزوج: ولايهمك.. أنا إنسان متحضر، وحاربت فى كل كتاباتى وأعمالى الفنية من أجل القانون وسيادة القانون.. لا أحد فوق القانون ولا أحد فوق أحكام القضاء النهائية.. كان ممكن سقراط يهرب من

تنفيذ الحكم بإعدامه بالسم، لكنه رفض.. وقال: وبعد أن نهرب لمكان آمن سيقول لنا الناس، ألم تنادوا من قبل باحترام القانون؟ هل إذا ماطالكم القانون وحكم بموتكم تتنكرون له وتمتنعون عن تنفيذه.. أمثالى ياسيادة العقيد يجب أن يبادروا بتنفيذ القانون.. بمعنى أدق بتنفيذ أحكام القضاء النهائية.. أنا تحت أمرك، بل سأساعدك بكل إخلاص فى تأدية مهمتك.

الضابط: الحمد لله.. هو ده اللى باتوقعه من حضرتك.. تسمح لى بطلب سخيف شوية.. تسمح لى أقلع الجزمة.. ضيقة جدا وحاتقطع رجلى..

الزوج: اتفضل.. أرجوك.. خد راحتك.

(الضابط يخلع الحذاء ثم يخلع الجورب)

الزوج: واضح كمان أن الشراب ضيق.. لحظة واحدة حاجيب لك شبشب..

الضابط: شكرا.. أنا معايا شبشب..

(يفتح الحقيبة ويخرج منها شبشباً)

الزوج: ممكن تقلع الجاكتة كمان؟

الضابط: شكرا

(يخلع الجاكت)

الزوجة (داخلة بصينية القهوة): أهلاً وسهلاً.

الضابط: تسلم إيديكى.. أنا آسف للازعاج.

الزوج: مراتى.. إحسان.. سيادة العقيد عبد الواحد.. جاى يفرقنا..

الزوجة: أهلاً وسهلاً.. حضرتك جاى تفرقه عنى وإلا تفرقنى عنه؟

الضابط: ولله يافندم المسألة دى غامضة جدا فى الحكم.. الحكم يقضى بالتفريق لكنه لم يذكر ولم يحدد مين اللى حايفترق عن الثانى.

الزوجة: دى مسألة مهمة جدا.. لأنه حايترتب عليها مين اللى حايستنى هنا فى الشقة ومين اللى حايخرج، واللي حاتفرقوه وتخرجوه من هنا.. حاتودوه فين..؟ أنا مستعدة أنفذ الحكم دلوقت.. حاحضر شنطتى فى دقايق.. حضرتك حاتودينى على فين؟

الضابط: مش حاوديكى أى مكان..

الزوجة: يبقى حاتاخده هو..

الضابط: ولاجوزك..

الزوجة: مش فاهمة.. آمال ماتفرقنا إزاى؟

الضابط: الواقع يافندم إحنا بعتنا لمجلس الدولة نطلب منه تفسير كيفية تنفيذ الحكم.. لأن الحكم لا سابقة له فى التاريخ...

الزوج: بالتأكيد.. هذا أول حكم فى التاريخ يستند للقانون لإلغاء فكرة القانون نفسها.

الضابط: والله أنا مش فاهم ولا حرف من اللى حضرتك بتقوله..

الزوجة: ماتدقش، ده كلام مثقفين.. خلينا عمليين، لنفرض إنى حافترق عنه أو هو حافترق عنى.. قد إيه مسافة الفراق.. هل ممكن نسكن فى نفس الشارع.. فى نفس البلد.. فى نفس الدولة، ومين حايدفع ثمن الشقة؟

الضابط: شقة إيه؟

الزوجة: اللى حايقعد فيها المفترق؟.. أمال حاتفرقوه وترموه فى الشارع؟.. الحكم بالتفريق مش بالتشريد.. ماهو أنا كمان ما قدرش أترمى فى الشارع وبعدين يتقبض على فى قضية تسول أو ما هو أسوأ.. لنفرض جدلا بالفعل.. بأقول جدلا.. لنفرض أن جوزى كافر.. وإنى لازم أسيبه لأنى مؤمنة وموحدة بالله.. حاضر، حاسيبه، واروح فين؟ هل معقول المرتد يقعد فى الشقة والمؤمن يترمى فى الشارع.

الضابط: هى الشقة باسم مين؟

الزوجة: باقول لحضرتك إيه.. ماتدخلنيش فى متاهة.. اهو واحد فينا حايتشرد فى الشوارع.. السؤال هو.. هل لابد أصلا من تنفيذ الحكم؟

الضابط: محتم.. عندما تمتنع الدولة عن تنفيذ أحكام القضاء ينهار المجتمع من أساسه.

الزوجة: ما تفهمنى ياحضرة الضابط حضرتك جاى تعمل إيه بالظبط؟ أنا ملاحظة إنك قلعت الجزمة والشراب والجاكتة.. وطلعت شبشب من الشنطة.. هل أفهم من كده أنك حاتطلع بيجاما؟

الضابط: مش دلوقت.. أنا بالبس البيجاما قبل النوم مباشرة.

الزوج: النوم؟ حضرتك حاتنام معانا؟

الضابط: أيوه.. هى دى آخر حاجة وصلنا لها.. التحريات أثبتت أن عندكم أوضة نوم واحدة..

الزوجة: فعلا.

الضابط: حضرتك حاتنامى فيها لوحدك.. وأنا والبيه هانام هنا فى الصالة.

الزوج: لامتى؟

الضابط: لحد قسم الفتوى والتشريع مايقول لنا..

الزوجة: وحا يقول لكم إمتى؟

الضابط: علمى علمك..

الزوج: يعنى إيه حنام هنا على الأرض؟

الضابط: أنا شخصيا هانام على الأرض نام حضرتك على الكنبة.

الزوج: عاوز أنام فى سريرى.

الضابط: أنا باقول كده برضه.. تحت أمرك، ننام إحنا الاتنين فى سريرك والمدام تنام هنا.. شوف أنا عاوز أسهل لك الامور على الأخر.. عاوز أنفذ الحكم بلا أى تعسف أو إساءة استخدام للسلطة.

الزوج: حضرتك بتتكلم جد؟

الضابط: أنا عمرى ما هزرت فى شغلى.

(يخرج مسدسه من جرابه ويضعه قريبا منه)

الضابط: وعلى فكرة مسموح لنا فى وحدة تنفيذ الأحكام باستخدام القوة.

الزوج: تسمح لى أروح ألبس البيجاما؟.. تعالى يا إحسان طلعى لى البيجاما.

الضابط: حضرتك تستنى هنا وهى تجيب لك البيجاما.. أو هى تستنى هنا وتروح حضرتك تلبس البيجاما.

الزوج: وأسيب مراتى مع واحد غريب؟

الضابط: مش مراتك.. أنت حاتسيب واحدة غريبة مع واحد غريب..

الزوج: (منهاراً فى تعاسة) روحى يا إحسان هاتيلى البيجاما.

(إحسان تخرج)

الزوج: على فكرة أنا باشخر شخير يصحى الميتين.

الضابط: مش مشكلة.

الزوج: وبتطلع من بطنى أصوات فظيعة.. مدافع..

الضابط: ولايهمك.. إحنا بنشتغل فى ظروف أسوأ من كده بكتير.. ساعات بينضرب علينا مدافع فعلا.. تلعب كونكان؟

(الضابط يخرج كوتشينه من الحقيبة)

الضابط: تحب تقسم والاتفرق؟

(تدخل الزوجة ومعها البيجاما)

الزوجة: وهى دى عاوزه سؤال؟.. حضرتك اللى حاتفترق طبعا.. ممكن ألعب معاكم؟

الضابط: أدخلى أوضتك يامدام.. حضرتك متفرقة دلوقت.

(إظلام على المشهد وعلى المسرح وعلى كل شىء)

***



أحاطت وزارة السياحة خط سير الأتوبيس الضخم بسرية كاملة، والمعلومة الوحيدة التي تسربت هي أننا ذاهبون لمكان جميل، وقد صرح أحد المسئولين بابتسامة غامضة: رايحين ع البلد اللي يحقق أمل العشاق.

وشعرنا جميعا بالفرحة. فكلنا عشاق، وكم هو جميل أن نذهب لبلد يحقق أمالنا جميعا.

فى كافتريا المحطة بدأنا نتعرف علي بعضنا البعض ونتبادل الحديث قبل وصول الاتوبيس.

– أنا عاشق للاشتراكية حيث العدل الاجتماعى والشعب يقف صفا واحدا فى مواجهة الإمبريالية والاستعمار والإقطاع والنفوذ الأجنبى.

– ولكن الاشتراكية فشلت فى كل مكان

ولكنها ستنجح في مصر.. كل الشعوب التي فشلت فيها الاشتراكية شعوب غبية ولكن المصريين أذكياء.. وهناك أمر آخر.. مصر يحميها الأولياء.. ستنجح الاشتراكية في مصر ببركة هؤلاء الأولياء.. وماذا تعشق حضرتك؟

أنا أعشق الحرية الفردية وحقوق الإنسان الفرد والليبرالية السياسية والاقتصادية، ولست أرى نفسي في عداء مع الغرب أو الشرق.. أنا عدو فقط لكل ما ينال من حرية الإبداع الفنى والإنتاجي والاقتصادي والزراعي..

– أهلا وسهلا.. وسيادتك؟

– أنا بصراحة أعشق الديكتاتورية.. هذا المجتمع ينتظر من يربيه ويصلحه ولا داعي للنفاق.. لابد من عدة معتقلات.. وعدد من الجلادين وزعيم واحد ملهم يقود الشعب في اتجاه تحقيق أحلامه، حتى لو مات الملايين جوعا ورعبا.. حتى لو تمت التضحية بثلاثة أرباع الشعب أو أربعة أخماسه أو تسعة أعشاره.. لابد من زعيم أوحد مرعب يلقي الرعب في القلوب من أجل تحقيق آمال الشعب.. الشعب نفسه ليس مهما يازميل.. المهم هو تحقيق آماله.

– أهلا وسهلا.. مرحبا بك في أتوبيس العشاق.. وأنت يا سيدتي.

– أنا أعشق الماضي ياسيدي.. أريد الذهاب إلى محطة في التاريخ كنا فيها أمة واحدة يخشانا الجميع.. أمة واحدة من المحيط إلى الخليج.. أمة تحكمها تقاليدها وتراثها وتعاليمها.

– جميل ياسيدتي.. أمة واحدة يحكمها حاكم واحد..؟

– طبعا.. حتى لاتحدث فرقة وانقسام.

– كيف سيأتي هذا الحاكم الواحد؟ هل سننتخبه؟

– فلتكن الطريقة ما تكون، المهم هو وحدة الأمة التي لن تتحقق إلا بوحدة الحاكم.. لابد من أمير للمؤمنين..

– ياله من حلم جميل ياسيدتي.. حاكم عربي طبعا؟

– طبعا طبعا..

– والله ياسيدتي.. هناك معان جميلة في كلماتك أميل إليها.. أنا أيضا أحلم بأمة واحدة يحكمها حاكم واحد.. ماهي جنسيته؟

– قلت لك عربي.

– يعني منين؟.. مصري؟

– ليكن مصريا..

– هل ستوافق السعودية والخليج والأردن والعراق وسوريا ولبنان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب وجزر القمر و.. و.. على ذلك؟

– ليكن سعوديا.. ليكن سوريا.. ليكن عراقيا..

– لا أعتقد أن بقية الدول ستوافق على ذلك.

– وهل سننتظر موافقة الدول أو الشعوب أو الحكومات.. اللى يوافق يوافق واللى مش حايوافق ياخد على دماغه.

– يعني حضرتك تستبعدين الديموقراطية.

– ديموقراطية إيه؟.. هل تصدق هذا الكلام الفارغ..

– معنى ذلك ياسيدتي العاشقة المثقفة الوحدوية، أن صدام

حسين هـو النموذج الـوحيد المؤهل لأن يكـون أميراً أوحد لهذه الأمـة الواحدة المؤمنة.

– نعـم ، ولست وحدى فى ذلك.. ما رأيك فى هذا العدد الغفير من المثقفين العرب الذين وقفوا بجواره يؤديدونه فى احتلاله للكويت؟

– رأيى أنهم مجمـوعـة من العبيد المرضى عشـاق الاستبـداد تـربـوا على استبـداد الأب والأسرة والحكام فتعطشـوا للمـزيـد.. على العموم مرحبا بك معنا فى أوتوبيس العشاق ياسيدتى.. وأنت ياسيدى ماذا تعشق؟

– أنا شارى دماغى.. أعشق ذاتى.. ومسئول فقط عن نفسـى.. سأدعم الحكم الموجـود وأؤيد الأفكـار السائدة، سأدافع عن الأقـوى وأمـزق الأضعف وسأعزف دائما النـوتـة التى أتسلمها من حكـامى وحكومتى.

– أنت نموذج غير راق من البشر ياسيدى.

– حتى قلة أدبك لاتجعلنى أفقد أعصابى، فأنا كما قلت لك شـارى دماغـى، بل أوافقك على أننى نموذج غير راق.. انظـر حـولك.. مـاذا عن بقية ركـاب الأتـوبيس؟.. هل هم فـرسان الملك آرثـر؟ نحن الأغلبية ياصديقى.

قالها وانطلق يغنى: رايحين ع البلد اللى تحقق أمل العشاق.

وانطلق الأتـوبيس، بعد عـدة ساعـات تغيرت ملامح الطـريق حتى أصبحت مجهولة تماما بـالنسبة لى، اقتربت من السائق وسألته هامسا: إحنا رايحين فين؟

– رايحين ع البلد اللى تحقق أمل العشاق.

– محافظة إيه؟ فى بحرى ولا الصعيد؟ داخل مصر أو خارجها؟ ومتى نصل إليها؟

استمتع بالمجهول ياعزيـزى.. أنت تفسد الرحلة بأسئلتك.. على الأقل تمنع نفسك من الاستمتاع بها.

بكل ما أملك من شعور بـالبهجة أخذت أغنى رايحين على البلد اللى تحقق أمل العشاق.

***



كنت راكبـا بغلتي في طريقي لمنـزل صـديقي محتسب حي الجمالية عندما فوجئت بـالعيارين والشطار والأزلام والصعاليك والجعيديـة وأسافل الجعيـديـة وبقيـة حثالـة القوم ينـدفعون هائجين في شارع البحر في طـريقهم إلى ميناء بولاق.. استولت على الدهشة، هم عادة عندما يهيجون يحطمون الحوانيت وينهبونها ويسرقـون المارة ويعيثـون في الأرض فســادا، إلى أن يـرسل لهم الباشـا من القلعة تجريدة تؤدبهم وتعيـدهم إلى الشقوق، ولكني أراهم الآن يجرون مهـرولين إلى مقصـــدهم بغير أن يسببـوا أذى لأحد، سألت أحدهم: إنتم رايحين بولاق ليه يا معلم؟

فأخرج صوتا غليظا من أنفه وأشار لي بما معناه، وأنت مالك!!

عرجت من فـوري على دار كبير البصاصين لأسأله عما يحدث، فقـال لي: هناك أخبـار عن سلع غـريبـة لم نسمع بها من قبل وصلت

ميناء بولاق من بلاد الإفرنج.

– من أى مكان فى بلاد الإفرنج.. هل من بلاد الغال أم من بلاد الإنكليز.. أنت تعرف أننى ضليع فى معرفة بلاد الكفار.

– من هذين البلدين.. ومن بلد آخر يقال له أمريكا.

– لم أسمع بها من قبل.

– يقال أنها اكتشفت منذ عهد قريب.

– وما هى هذه السلع.. ومرسلة لمن ؟!

– هى هدية لحكومة مصر المحروسة لخطب ودها.. والمشايخ يهاجمونها فى الجوامع بزعم أن الكفار أرسلوها لكى يفتنوا بها خلق الله.

– سيقولون كلاما آخر عندما يجدون لهم نصيبا فيها.. ولكن ما شأن هؤلاء الناس بهذه السلع؟

– ذهبوا ليتفرجوا عليها.

ملأنى الفضول وانضممت لهم وأخذت طريقى إلى بولاق، يا الله، هل فى مصر المحروسة كل هذا العدد من الغوغاء، كانوا عدة مئات من الألوف، بل إن كثيرا من أهل القرى والعزب والدساكر والشقالك جاءوا أيضا عندما وصلهم النبأ.

عند الميناء كانت هناك عشرات المراكب والسفن والعمائر البحرية الأجنبية محملة بأشياء لم نرها من قبل، وقد وقف فوق أسطحها البحارة بأرديتهم الإفرنكية، غريب أمر هؤلاء الأجانب، تصور أنهم سمحوا للدهماء بالصعود على ظهر المراكب والفرجة على السلع والبضائع، ووقف القباطنة ومعهم مترجمون يشرحون لأولاد

البلد المصرلية طبيعة الأشياء ووظائفها.

– هذه تسمى مطبعة.. تطبع الحروف والكلمات فوق صفحات الورق هكذا.

– هل تظننا جهلاء؟ ليست هذه مطبعة.. أنا أعرف المطبعة فقد شاهدتها مع علماء بونابرت الفرنسيس.

– هى مطبعة ولكنها متطورة جدا عن تلك التى شاهدتها.. انظر هاهى تطبع مئات الألوف من الصفحات فى دقيقة واحدة.. وهى تطويها أيضا.. فتسمى صحيفة أو جريدة.. وهى تقوم بطباعة الكتب وتغليفها أيضا.. وهذا هو الراديو.. اسمع..

يا إله السموات، قطعة من الخشب تتكلم وتغنى.. وهذا يسمى ميكروفون.. يستطيع الباشا أو أى متحدث أن يتكلم فيه فيسمعه كل العباد فى ربوع المحروسة فى نفس اللحظة، أما هذا الصندوق فهو التليفزيون.. انظر، الناس بداخله تغنى وترقص وتلقى بالأحاديث الاجتماعية والدينية..

يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف، مشايخ الجوامع عندهم حق، قطعا هذه المخترعات لم يرسلها الأجانب إلا لكى يخربوا عقول الناس.

أما هذا الجهاز المعجزة فهو الفاكس.. تكتب خطابا وتضعه هكذا فيصل إلى صديقك أو عدوك فى أى مكان فوق الأرض.. ويستطيع أن يرد عليك ويصلك الرد بعدها بدقيقة أو أقل.

– لا تستصغر عقولنا يا أمير البحار.. الجن وحده هو القادر على ذلك.

– والفاكس أيضا يقدر..

– حسنا.. لى صديق فى باريز اسمه الشيخ رفاعة الطهطاوى، هل أستطيع أن أفاكسه؟

– تستطيع أن تفاكسه وأن يفاكسك.. ماهو رقم الفاكس عنده؟

– هو شيخ محترم له اسم ذائع الصيت وليس شيئا أو بيتا له رقم.

على الفور أخذ القبطان يرطن فى جهاز صغير لا أعرف اسمه ثم قال: رقمه هو نفس رقم البعثة المصرية فى باريز.. خذ هذه الورقة وأكتب له ما تشاء.

– وما يدرينى أن الرد سيكون منه شخصيا.. قد تكتبون أنتم الرد مثل السحرة ومحضرى العفاريت.

– قل له أشياء لا يعرفها أحد سواكما.

فكتبت له: قلبى معك ياشيخ طهطاوى فى بلاد الكفار.. رعاك الله وقوى إيمانك.. طمّنى، ماهى أخبار المسائل؟

بعدها بدقيقة واحدة ظهرت ورقة على الفاكس مكتوب عليها: قشدة، عسل، ميت فل وعشرة.

كانت بخطه الذى أعرفه جيدا.

بدأت أشعر بالرعب على تقاليدنا ووطنيتنا وتراثنا وأخلاقنا وعاداتنا، حتما كلها ستتغير إذا استخدمنا هذه الأدوات التى يسيرها الجان قطعا.. لابد أن أحذر الباشا منها فورا، سأطلب منه أن يرفض هذه الهدايا وأن يعيدها جميعا لمن أرسلوها.

جاء الباشا فى موكب مهيب يتقدمه قاضى القضاة والعلماء والأعيان ورؤساء الجند، شققت طريقى بسرعة إليه وعلى بعد خطوات

منه صحت بأعلى صوتى: احترس يا ولى النعم.. هذه الأدوات ستأتى لنا بالخراب.. كلها أرسلها الغرب.. وأنت تعرف بالطبع أن مفيش حاجة تيجى من الغرب تسر القلب.

فرد علىّ أحد العلماء صائحا: خفف من غلوائك ياشيخ.. إن الغرب بكل مخترعاته مسخر لخدمتنا.

فصحت بانفعال: تكفينا السيارات والطائرات والغسالات والثلاجات والخلاطات أما هذه الأشياء التى يسمونها الراديو والتلفزيون والفيديو وماكينات الطباعة والجرائد والمجلات وأجهزة الفاكس فهى جميعا شر مستطير..

وتكلم الباشا بصوته الرصين: ياشيخ على، هذه الأدوات سيعمل عليها فقط الأعيان والنخبة، كل من يريد الخير لأهله، كل من يملؤه الشوق لرفعة مصر المحروسة وأهلها، ليس هذا فقط، بل لابد أن يكون من أصحاب الكفاءات العالية والدراية الواسعة.. النبلاء فقط ياشيخ على، هم المسموح لهم باستخدامها.

– هل تضمن يا باشا ألا تتسرب إلى الآخرين؟

– نعم، أضمن ذلك بقوة الدولة العليّة وإلا تحولت الحياة إلى فوضى شريرة.

قال ذلك ثم أعطى الجند والحجاب أمرا بالتقدم واستلام الهدايا وتسجيلها فى سجلات القلعة.

بدأ الجنود فى الاستلام، فى تلك اللحظة خطف أحد الدهماء ميكروفونا واختفى بين جموع البشر. تعالت الصيحات وساد

الاضطراب، وفجأة انــدفعت الألــوف تخطف وتنهـب الهدايـا التى أرسلها الغرب.

عجـزت عساكـر البـاشا عن منعهـم، اختطفوا عـددا كبيراً من الميكروفونات والتلفزيونات والمطابع وأطنان من الورق.

هاجم عسـاكر الباشا أوكـارهم بحثا عن هذه الأشيـاء، ولكنها اختفت، ويقال إنهم استطـاعوا التعـامل معها وتشغيلهـا والاستفادة منها.

***



لست أدرى هل كان كـابوسا أم حلماً مزعجـا، أسير فى شوارع غريبـة .. الناس فيهـا تتكلم لغة لم اسمعها مـن قبل، فوجئت أنهم أو معظمهم يعرفون اللغة العـربية ولكن لا يتكلمونها، اقتربت من بوتيك أنيق، لافتة مصنوعة من الأنوار المتقطعـة كتب عليها: «بوتيك الحكمة وحدة الذكاء لصاحبته السيدة بلاهة»

- اسمك بلاهة ياسيدتى، وتبيعين الحكمة والذكاء؟

- وهل يبيع البلهاء شيئاً آخر؟

تركتها ومشيت فى طريقى، جلست على مقهى، علقت عليه لافتة كبيرة مكتـوب عليها «مقهى النشـاط والقوة والحيـويـة الفائقـة»، ثم رسـومات لعـدة أشخاص من أبطـال رفع الأثقـال، لابد أن رواد هـذا المقهى من المصارعين والملاكمين وأبطال الجمبـاز، أشرت للجارسـون، كـان عجوزاً تخطى الثمانين من عمـره، سار فى بطء وصعـوبة وهـو يترنح حتى وصل إلىّ.. وقف أمامي ساكنـا وهو يتنفس بصعوبة، هل هذه المدينة لا تعرف الرحمة، هـذا الرجل من حقه أن يجلس مسترخيا

الآن فى حديقة غناء قلت له: هل خلا قلب صاحب هذا المقهى من الرحمة؟ منذ متى وأنت تعمل هنا؟

– منذ أن كنت طفلاً.. من حوالى سبعين عاما.

– من حقك أن تحصل على معاش محترم وأن تستريح فى بيتك.

– لماذا؟أنا بصحة جيدة، وأتمتع بحيوية فائقة وقادر على تلبية طلبات الزبائن، هل لاحظت على ضعفاً أو عجزاً أو وهناً؟.. ألم آت إليك بسرعة البرق؟

– من صاحب هذا المقهى؟

الحاج عاجز كل العجز، واسم شهرته: عجز كلى.

– ومع ذلك اختار الحيوية والقوة والنشاط لتكون اسما لمقهاه؟

– هل تتصور اسما آخر يطلقه العاجز على مقهاه.. أنظر حولك، عدد الزبائن بالمئات، كسالى وعجزة ومتبلدين.. ولولا اسم المقهى ما جاءوا إليها.

عدد كبير كان يلعب الطاولة، من حجم الشتائم التى يتبادلونها.. بإحساس صادق تصورت أنهم سيقتلون بعضهم البعض. العب ياوسخ يا ابن الـ..... العب يا مجرم. حاخلص عليك.. هو أنا حاسيبك يامجرم.

قمت من المقهى، مررت على أجانس سيارات، كان يبيع حميرا، اقتربت من صاحبه:

– لماذا كتبت «أجانس سيارات» بينما أنت تبيع الحمير؟!

– ما معنى السيارة؟.. أليست هى ما يسير؟.. ألا تسير الحمير؟.. الحمير أيضا سيارة. أليس كذلك؟

– نعم هى كذلك.. ولكن المفهوم الآن من كلمة سيارة...

قاطعنى:

– ماذا تعنى بكلمة الآن.. أنا لست موجودا الآن.. أنا موجود أيام زمان.

أشعرتنى إجابته بالاضطراب، سألته: نحن الآن فى عام ١٩٩٦ ميلادية.

ضحك الرجل وأجاب: لا.. أنا أعيش الآن فى عام ١٦٠٠ ميلادية.

– لماذا؟ الكرة الأرضية ومعها الزمن موجودة فى عام ١٩٩٦، لماذا اخترت حضرتك العودة ٤٠٠ سنة للوراء؟

– أنا حر.. أنا حر فى اختيار اللحظة التاريخية التى تريحنى وتغذينى نفسيا وعقليا.

تركته بعد أن لمحت سيفا معلقا على الحائط ونطعا فى ركن الأجانس.

* * *

مررت بصالة ملاكمة، كانت تقام مباراة مباراة هامة، لست أحب الملاكمة ومع ذلك سأدخل لأتفرج، بالتأكيد هى مباراة عصرية، العصور الوسطى لم تعرف الملاكمة، سألتنى عاملة شباك التذاكر: أين الإقرار؟

– إقرار بماذا؟

– يوه.. باينك غشيم.. واللاغريب.. اتفضل وقع الإقرار ده.

قدمت لى ورقة مطبوعة مكتوبا عليها: أقر بأنى المسئول الوحيد عما قد يحدث لى داخل قاعة الملاكمة، ضحكت وقلت لها: لست أنا الذى سيلاكم.. أنا سأتفرج.

– هل هى المرة الأولى التى تشاهد فيها الملاكمة عندنا؟

– نعم.

– آه عشان كده.. اتفضل امضي الإقرار.. ده إجراء روتيني عادي.

وقعت الإقرار، حجزت مكانا في الصفوف الأولى. لا أعرف أسماء المتلاكمين، ولكن كل منهما كان يتميز بذراعين مثل أذرع الكراكات.. هل قواعد الملاكمة هنا هي نفس القواعد التي نعرفها في بلادنا؟ سنرى.

كان الحكام يجلسون أمامي مباشرة.. الحكم الواقف على الحلبة كان طويلا عريضا وكأنه ملاكم سابق اعتزل الملاكمة في الاسبوع الماضي فقط.

صوت «الجونج» تصافح الملاكمان بسرعة ثم قفزا من فوق الحلبة، ظل الحكم في مكانه بدأ الملاكمان يضربان المتفرجين في قسوة وضراوة بينما ارتفعت صرخاتهم، كان من السهل أن تسمع ضلوعا تتكسر، جريت بسرعة البرق شاقا طريقي وألقيت بنفسي تحت مائدة الحكام الطويلة.

صرخات المتفرجين تشتد، الملاكمان مستمران في ضرب الجمهور وهما يطلقان صيحات وحشية، استمرت الجولة ثلاث دقائق مرت كأنها دهر.. صوت الجونج.

عاد الملاكمان إلى الحلبة يلهثان، نظرت إلى المتفرجين، عدد كبير تكسو وجوههم الدماء منهم من هو ملقى على الأرض يتأوه..

دخل إلى القاعة على الفور بعض رجال الصليب الأخضر ومعهم النقالات، جريت إلى باب الخروج، لم يكن مسموحاً بالخروج إلا لأصحاب الإصابات الخطرة، مسموح بالخروج فقط على النقالات وليس على الأقدام، عندما رأوني ماشيا على قدمي رفضوا خروجي، ونظروا لي باحتقار بوصفي غشاشا.

قلت لهم: إنني من طقم الحكام وخارج لأشتري سجائر من البوفيه وسأعود فوراً. سمحوا لي بالخروج، جريت في الشارع وكأن الجن في أعقابي.

أنهكت من الجري، أخذت أتمشى بجوار النهر، جاءت عربات نقل كثيرة بها زبالة وأوساخ ومخلفات مصانع نزل منها العمال وأخذوا يلقون بحمولتهم في النهر.

– احترسوا ياسادة، أنتم تلوثون النهر الذي تشربون من مياهه.

– لا.. نحن نشرب من الحنفيات.

– ولكن مياه الحنفيات تأتي من هذا النهر..

– صحيح.. يانهار أسود.

أخذوا يتصايحون في غضب وهم يشتمون النهر والحنفيات والزبالة وكل شيء في الدنيا، وانهاروا في نوبة بكاء شديدة وأخذوا يلطمون وجوههم ويمزقون ملابسهم.. لكن بعد أن استراحوا قليلا واصلوا إلقاء الزبالة في النهر.

خرجت من المدينة، وجدتني وسط الصحراء، رأيت رجلا جالسا على صخرة، سألته: حضرتك مين؟

أجابني: أنا المسئول عن كل هذه الأرض.

– جميل أن أقابلك ياسيدي.. هناك عدة أنهار وآبار قريبة.. ما رأيك في زراعة هذه الصحراء.. نستطيع أن نزرع ملايين الأفدنة ونحول هذه الصحراء للون الأخضر.

– أين هذه الصحراء؟ هل ترى صحراء؟ لقد زرعناها بالفعل وهي الآن سهول خضراء... ألا تراها؟

– لا ياسيدي، لست أراها.

- لأنك أعمى.. لقد زرعنا الصحراء وجنينا الثمار، جزء أطعمنا به الناس والباقى صدرناه، وحصلنا منه على مبالغ طائلة سددنا به معظم الديون. هل تقرأ الصحف؟

- نعم ياسيدى..

- مستحيل لو كنت تقرأ الصحف لعرفت أن هذه الصحراء لم تعد صحراء.

أخرج من جيبه صحيفة قديمة تصدر فى أمريكا اللاتينية، كانت باللغة الأسبانية.

- هذه صحيفة تقول ذلك.

شكرت الرجل وانصرفت. كنت أفكر فى ديكارت، أذكر أنه سأل نفسه: ماهو الدليل على أن مايحدث حولى الآن يحدث بالفعل وليس تهيؤات فى ذهنى؟

أذكر أنه عثر على دليل على أن ما يحدث له يحدث بالفعل وليس حلماً أو كابوساً أو تهيؤات.. أنا أيضاً فى حاجة لدليل من أى نوع يؤكد لى أن ما شاهدته لم يكن أكثر من كابوس.



قالوا لى إن شخصا يطلب مقابلتى اسمه الغرب.

- اسمه الغرب..؟

- نعم..

- يتفضل.

وجاء الرجل، وكما توقعت كانت ملامحه أمريكية، أوروبية، يابانية.

- أهلا وسهلاً ياسيادة الغرب.. تفضل..

- ألا تخشانى.. ألا تكرهنى؟

- لا.. لأننى لا أشعر بالضعة والحطة تجاهك، أنا قادر مثلك على الإبداع والعمل الشاق وقادر على امتلاك نفس القيم الإنسانية العالية التى تتعامل بها، وأعرف حدود مصلحتى ومصلحتك والدائرة

التى تضم مصلحتنا معا.. وثقافتى الفرعونية التى انتقلت إليك عبر اليونان تدفعنى للإيمان بالحياة والحرية وحقوق الإنسان وبالمثل العليا.. أنا طويل القامة مثلك تماما ولذلك لا أشعر بالضآلة أمامك، تلك الضآلة التى تدفعنى للهجوم عليك بدافع من الفزع منك.

- مدهش.. هل تستطيع أن تفسر لى السبب فى أن بعض الكتاب النجوم فى صحفكم الحكومية يدفعون بالكراهية تجاهى فى قلوب القراء ويشوهون شخصى.. مامعنى أن كاتبا كبيرا ونجما تليفزيونيا يشن علىّ حملة شعواء بأن حضارتى هى حضارة اللواط والسحاق والانحلال؟ مامعنى أن أتهم بأننى الغرب «النصرانى» الذى يشن حربا لا هوادة فيها على الإسلام والمسلمين؟

- أولاً.. لا توجد لدينا جرائد حكومية.. لدينا جرائد قومية..

- يعنى تبع مين؟

- تبع القوم.

- آه.. قوم مين؟

- القوم المصريون..

- هل أفهم من ذلك أن هؤلاء الكتاب يعبرون عن شعور المصريين تجاهى.. تجاه الغرب؟ وهل أفهم أن المصريين يريدون شن حرب ضدى.. أو يشعرون بالفعل أننى سأشن حربا صليبية «نصرانية» ضدكم.

- لا شأن للمصريين بذلك.. هذا شأن الكتاب.. الصحافة عندنا حرة والكتاب أحرار.

- من يدفع ثمن حرية التعبير فى الصحافة عندكم؟

- الحكومة.. الحكومة تدفع للصحافة وللصحفيين وللطباعة والأحبار.. لكى يستمتعوا بالحرية فى أن يتكلموا عن الغرب النصرانى الذى يعادينا.

- ولكننا لا نعاديكم ولدى ألف دليل على ذلك.

- أعرف ذلك جيدا.. ولكننا أحرار يا أخى.. هل تريد منا أن نعمل ضد الحرية؟ عيب يا راجل.

- مسألة غريبة ومدهشة.. نحن ندفع لكم القروض والمنح لكى تحولوا بها غابات العالم إلى ورق، تصنعون منه سكاكين تغرسونها فى صدورنا.

- اسمع ياصديقى الغرب: هناك بعض الناس يؤمنون أن أمريكا هى الشيطان الأعظم وأن إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا إلى آخره.. شياطين فكة.. وهم يكرهون الشياطين، لذلك يخوضون حربا ضدها، أقصد ضدكم.

- حسنا.. نحن الشيطان الأعظم وحلفاؤنا الشياطين الفكة.. لماذا يحصلون منا مجاناً على الأفلام العلمية بدعوى استخدامها استخداما تجارياً فى تليفزيونات المنطقة تجلب لهم الشهرة ومئات الألوف من الدولارات، لماذا يأتون إلينا لاجئين طالبين الحماية والأمان ولقمة الخبز ثم يخططون لقتلنا.. هل تعرف أن أربعة من المصريين اللاجئين فى الدانمارك تم القبض عليهم متلبسين بالتخطيط لعمل تفجيرات.. لماذا يفعلون ذلك لمن استضافهم وآواهم؟

- ببساطة، لأنهم فى حالة حرب معكم.. والحرب خدعة كما تعلم.. من حقهم أن يخدعوكم هذا قانون الحرب كما تعلم..

- لم نعلن عليهم الحرب، ولانعرف أنهم فى حالة حرب معنا.

- الحمد لله.. ها أنتم قد عرفتم.

- ولكن من الذى وضع فى أمخاخهم فكرة أنهم فى حرب معنا؟

- بعض زعمائهم وكتابهم الذين هم كتابنا أيضا.. هو حضرتك عاوز تبقى غربا ملحدا وشيطانا ومش عاوز المؤمنين يحاربوك؟

- ولكن لماذا تكون الصحف الحكومية أقصد القومية ساحة لهذه الحرب، نحن نتعاون فى مجالات كثيرة، بل إننا نقوم بالمناورات العسكرية معكم.. أى أننا على استعداد فى أى لحظة لأن نحارب عدوا مشتركاً..

- ياأخى قلت لك إن الحرب خدعة.. من حق المحارب أن يقفز إلى ساحة يختارها ويجدها فعالة فى ضرب عدوه.

- لن تصاب وحدنا فى هذه الحرب.. ستصابون معنا إصابات بالغة.. ستخلقون رأياً عاماً مسموماً بين المصريين يمنع أى تعاون حقيقى بيننا.

- إنها خسائر الحرب كما تعلم.. كل حرب لها خسائر

- ولماذا تسمحون بهذه الخسائر؟

- لأنهم فى حالة حرب ضدنا أيضاً.. من حقهم أن يخدعونا.. نحن لانتصور حتى الآن أن نشاطهم خطر علينا.. وعندما نتأكد من ذلك سنهاجمهم دفاعا عن مصر وليس عن الصحافة المصرية.

- وهل ستدافعون عنا أيضاً.. هل ستدافعون عن الغرب؟

- يانهار إسود.. إزاى، عاوزهم يقولوا علينا عملاء للغرب؟!.. دافعوا عن أنفسكم..

- إزاى؟! يعنى نعمل عندكم جرايد قومية ثانية يكتب فيها هؤلاء الذين ليسوا فى حالة حرب معنا ومعكم؟ هذا نوع جديد من الحرب الباردة لانفهمه.. نحن لانتصور أننا بحاجة إلى الدفاع عن

أنفسنا ضد صحافة وإعلام حكومات صديقة..

- هل تريدون التدخل فى حريتنا.. هل تعتقد أننا سنبيع حريتنا بحفنة دولارات؟

- وهل تعتقد أننا ندفع لكم حفنة الدولارات لكى تحولوا عقول الشباب ليصبحوا قتلة فى قراكم ومدنكم وشوارعنا، هل تعتقد أننا قطعنا هذا المشوار الطويل ضد الفاشية والنازية والشيوعية لكى نواجه بتفجيرات فى شوارعنا تقتل أطفالنا ومواطنينا لأن حفنة من الكتاب النجوم تمارس حريتها فى تعبئة البشر عندكم بكراهيتنا وتقوى عندهم الرغبة فى العدوان علينا؟!

- أنا شخصيا لا أعتقد أنكم ستسكتون. وأعرف أنكم إذا اتخذتم قراراً بالحرب فستكون حرباً لا هوادة فيها.. ولكن لنكن صرحاء: ما هى مسئوليتكم عن ذلك؟ ليست لدى أو لديك إجابة حاضرة أو جاهزة.. وأقترح تكليف عدة جهات بحثية بتقديم دراسات تقدم الإجابة وتقدم الحلول.

- هل تعتقد أن الشيوعيين وراء ذلك؟

- أنت تفكر مستخدما المفردات القديمة.. مع أن الماركسية اللينينية تحتم أن يكون الشيوعيون أعداء لكم، غير أننا نلاحظ أنهم أقل الناس عداوة لكم.. فهم يرونكم أعداء وليس شياطين.. وقد يكون ذلك راجعا للطابع الأخلاقى عند بعض زعمائهم فى مصر.. ولكن من المؤكد أن كل عشاق الفاشية والاستبداد بين كل الأجنحة فى حرب حقيقية معكم.

- السؤال هو المنطقة مقبلة على مشاريع تنمية ضخمة لرفع ،

مستوى معيشة البشر لتقليل حجم الإرهاب كخطوة أولى من أجل القضاء عليه.. كيف سنعمل معا فى ظل مناخ يمجد الحرب والكراهية والعدوان؟

- الإجابة هى: مش عارف والله.. أنا نسيت أطلب لك فنجان قهوة.. قهوتك إيه؟

***



- لأسباب سنتركها للمؤرخين، توقف «الفعل» عن العمل فى مصر، قرر الهجرة إلى الخارج، قبل أن يغادر استدعى السيد كلام وقال له: أنا مسافر.. غيبتى ستطول، لا أعرف بالضبط متى أعود.. وأريدك يا سيد «كلام» أن تشغل وظيفتى.. ولكنك لن تمارس اختصاصاتى، بل ستمارس اختصاصاتك.. لايجب أن تمهد للعقل، أو تحرض عليه، أو تشير إليه من قريب أو بعيد..

- فقال السيد «كلام»: هذه مهمة صعبة يا سيدى.. كيف أقوم بها.؟

- رد عليه «الفعل»: لا شأن لك بالعقل.. لا تمر عليه.. لا تتوقف عنده.. احذر من أن تلامس الرأس.. الجزء الأسفل من جسم الإنسان سيكون قاعدتك التى تنطلق منها.. اتفضل.. اشتغل.

- ووقع «الكلام» إقرارا باستلام الوظيفة، ليكتشف بعد أيام

قليلة أن مهام الوظيفة أكبر من قدراته، المطلوب منه أن يعمل مسئولا فى الحكومة والمعارضة، بالإضافة لعمله فى الإذاعة والتليفزيون والصحافة. كان عمله فى الصحافة مجهدا بحق، فهو رئيس تحرير ومحرر ومندوب إعلانات، ويعمل فى المسرح والسينما، دون أن يخطىء خطأ واحدا، لابد أن يحتفظ بهويته طول الوقت، أن يكون كلاما فقط.

شعر السيد كلام بالإجهاد العصبى، قال لواحد من أصدقائه: أشعر أننى وصلت لحارة سد.. قلت كل ما عندى.. قلته بكل الطرق والأشكال والقوالب، تعبت من الكلام.

فرد عليه صاحبه: لا تيأس.. هناك دائما فرصة ذهبية للكلام، سيعطيك الواقع فى كل لحظة حادثا غبيا تعلق عليه بألفاظ أكثر غباء، ولماذا تعيش تحت رحمة الواقع، الماضى كنز لا يفنى.. تكلم عن الماضى، هل تكلمت عن العصور الجليدية الأولى أو المتوسطة؟ هل تكلمت بما فيه الكفاية عن الجاهلية؟ هل تكلمت عن الفتح العربى للصين؟

- وهل العرب فتحوا الصين؟

- سؤالك يدل على الإجهاد الذى تشعر به، مازال العقل يعمل بداخلك، ليس مهما أن يكون العرب قد فتحوا الصين لكى تتناول هذا الموضوع، يكفى أن يكونوا قد فكروا فى ذلك.. المهم أن تجد ما تتكلم فيه بطريقة جادة ومهمة.. ومع ذلك، دعنى أهنئك على سؤالك وأوضح لك قدر ما فيه من ثراء. تستطيع أن تبدأ على الفور فى كتابة مائة مقال تناقش فيها الإجابة على هذا السؤال المهم: «هل فتح العرب الصين»

هذا الموضوع يغرى الآخرين بالرد عليك، وبعد أن يثبتوا لك بالأدلة أن العرب لم يحكموا الصين، عليك أن تبدأ حملة أخرى: «لماذا لم يفتح العرب الصين»؟ ستظهر بالطبع آراء متناحرة ومتناقضة ثم ينتهى الأمر بظهور وجهة نظر توفيقية تقول: إن العرب فتحوا الصين ثم أغلقوها على الفور.. بعدها تنتقل إلى القضايا الفكة.. هل المطلوب حرية صحافة أم صحافة حرة؟ هل المطلوب حرية القراء وحقهم فى أن يعرفوا.. أم أن المطلوب هو حقهم فى أن يجهلوا..؟

- آه.. فعلا.. ما هى الإجابة على ذلك؟

- ياجدع إفهم، ليس المهم الحصول على إجابة من أى نوع، هل نسيت مهنتك..؟.. مهمتك هى الكلام فقط.. مهمتك هى تدمير مئات الآلاف من أطنان الورق.. بأن تكتب فيها كلاما لا ينتفع به أحد.. أفهمت ياعزيزى؟! أنت مجرد بخاخة تبخ كلاما، والرذاذ المتطاير منك سينقل العدوى إلى بقية البشر فيصابون بالمرض، مرض الكلام، عند ذلك يحدث الانسجام بين الجميع، أنت تتكلم، أنا أتكلم، هو يتكلم، نحن نتكلم، هم يتكلمون.

- ماذا سيحدث إذا جرب أحدهم أن يستخدم كلاما نابعا من العقل؟

- سيبدو غريبا وشاذا، بل قد يتهم بالكفر ويتولى المجتمع كله عقابه، عندها سيقلع حتما عن هذه العادة السخيفة.. عادة التفكير.. ولكن فى كل الأحوال إحرص على حرية الكلام..

- تقصد حرية التعبير؟

- يا لك من غبى، قلت لك حرية الكلام فقط. حرية التعبير تعنى

حرية الفعل، لا تشغل نفسك بحرية التعبير، لأنها مرتبطة بالفعل العام، هى ممارسة محترفة مرتبطة بالأداء المرتفع فى المجتمع نفسه، هى فعل خاص نابع من الفعل العام.

هل تتصور وجود عرض مسرحى ممتاز فى مجتمع محروم من سباك جيد؟ هل تتوقع ظهور رواية ممتازة فى مجتمع خاصم الجمال والعدل عقول أفراده؟ المطلوب يا عزيزى حرية الكلام وليس حرية التعبير. حرية التعبير هى أن تقرر «فعلا» أن تزرع مليون فدان، أما حرية الكلام فهى أن «تقول» : أنا ازرع الآن مليون فدان ثم ينتهى الأمر عند ذلك.

من الواضح أنك لم تفهمنى بعد، لذلك سأشرح لك فكرتى بنكتة قديمة: اشتعلت المنافسه بين البقال اليونانى وجاره البقال ابن البلد فى شهر رمضان، بدأ التنافس بينهما فى الأسعار التى يعرضانها للياميش، كان سعر التين عند اليونانى خمسة جنيهات، فكتب المصرى على الجوال، التين بأربعة جنيهات، اضطر اليونانى لتخفيض السعر إلى ٣٩٠ قرشا، فكتب البقال ابن البلد، التين ٢٥٠ قرشا، عند ذلك ذهب إليه البقال اليونانى وقال له ساخطا: لما تبيع التين باثنين جنيه ونص ياخبيبى.. يبقى لازم تخسر..

فرد عليه ابن البلد وهو يقلب أمامه الجوال: تين إيه ياخواجا؟ هو أنا عندى تين؟

هذه هى المسألة، لايوجد عنده تين، يوجد عنده اسعار فقط، أرقام..

هذا هو بالضبط ما يجب أن تعرضه على البشر، أن تعرض

كلمات وأرقاما بديلا عن السلعة . هل تبحث الناس عن فرص عمل؟.. خلاص اكتب ٥ ملايين فرصة عمل سنة ٢٠٠٠ وأربعة ملايين فى شهر مايو سنة ٢٠٠١.. الناس تريد الاطمئنان إلى المستقبل، اكتب، مصر تصدر بترولا بخمسين مليار دولار سنة ٢٠٢٥

هل يريدون مساكن؟.. أكتب ٧٠ ألف وحدة جديدة كل شهر ابتداء من أول أبريل سنة ١٩٩٧..

عاد السيد كلام فى تلك الليلة إلى بيته مهموما فوجد زوجته قد ولدت طفلا جميلا أسمته «أى» ليكون أسمه سهلا فى النطق فى السنوات الدراسية: أى كلام!

عند ذلك تذكر السيد كلام والده وترحم عليه، كان اسمه جرايد.

***



من المؤكد أنه أكثر الجارسونات سماجة في التاريخ. فقد حدث بالأمس أن دخلت مطعماً للمرة الأولى في حياتي فجاءني الجارسون وعلى وجهه ابتسامة بليدة وقال لي: حضرتك حتاخد إيه؟

- عندكم إيه؟
- كل حاجة..
- خلاص. هات لي كل حاجة.
- هاها .. هاها .. حقيقي عندنا كل حاجة .. عندنا لحمة، فراخ، سمك.
- فيه شوربة؟
- فيه يافندم. تحب شوربة إيه حضرتك؟
- أي شوربة.

- تحب تاخد شوربة فراخ يافندم؟
- كويسة دى؟
- جداً.. ممتازة..
- هات لى شوربة فراخ.. والا أقول لك.. لحظة واحدة.. عندكم شوربة عدس؟
- عندنا يافندم..
- والا استنى.. العدس بيظهر البرد ويتعب الغليظ.. خليها فراخ.. والا استنى.. استنى.. فيه شوربة خضار؟
- فيه..
- والا بلاش.. شوربة الخضار بتدينى إحساس إنى عيان.. طب اسمع... بلاش شوربة.
- تحت أمرك.
- هات لى طبق سلطة بلدى..
- بالبصل يافندم..؟
- بالبصل طبعاً.. هو السلطة البلدى تنفع من غير بصل؟.. بس السؤال إيه.. بتعرفوا تغسلوا الخضار كويس.. أصلها حكاية خطيرة.. إنت عارف طبعاً فيه «فاشيولا» اليومين دول.. بلاش سلطة خضرا.. خليها سلطة طحينة.
- تحت أمرك يافندم.
- إذا كان عندكم بابا غنوج..
- عندنا يافندم..
- عظيم.. بلاش سلطة طحينة.. خليها بابا غنوج..

- ماشى
- بس عاوزها صابحة.. أوعى تكون بايتة..
- لسه معمولة دلوقت..
- متأكد؟
- متأكد يافندم.. أنا لسه شايف الطباخ بيعملها.
- من قد إيه؟
- من دقائق..
- ماتنفعش.. سلاطة البابا غنوج لازم تتقدم بعد ساعتين على الأقل.. لازم البادنجان يمر عليه وقت كافى فى الطحينه عشان يتشربها.. بلاش بابا غنوج.. عندكم طرشى؟
- عندنا.
- كلمنى بصراحة بتعملوه عندكم والا بتشتروه من بره؟
- بنعمله عندنا.
- مش أى حد يعرف يخلل الطرشى.. لازم الطرشى ييجى من محلات الطرشجية المتخصصين.
- أنا تحت أمرك.. حتاخد سلطة خضرا والا سلطة طحينة ولا بابا غنوج ولا طرشى.. والا كبة والا سلطة زبادى ولا تبولة؟
- إنت مستعجل والا حاجة؟
- لا يافندم.. احنا هنا فى خدمتك.. تحت أمرك.
- شكلك كده بتحقق معايا مش بتاخد أوردر..
- استغفر الله يافندم.. إحنا هنا كلنا تحت أمرك.
- أنا فعلاً نفسى آكل سلطة خضرا

- من حقك يافندم.
- لكن ده لا يتناقض ولا يجب أن يثير أى دهشــة إنى أشعر فى الوقت نفسه بالرغبة فى حتة طرشى.
- طبعاً يافندم.. طبعاً..
- لكن حتى لـو ترددت أو رفضت إنـى آكل سلطة وطـرشى.. فده مش معناه إنك تـرغمنى آخد سلطة بابا غنـوج.. صدقنى أنا مش عاوزك تتضايق منى.
- أستغفر الله يافندم.. ده إحنا سعداء بوجودك..
- خلاص.. أجّل حكاية السلطـة.. ما تلغيهاش.. أجّلها.. لحد ما أفكر.. أخبار الفراخ إية؟
- ممتازة يافندم..
- نوعها إيه؟
- محمرّة ومشوية وبانيه.. ومخلية..
- المخلية مشوية؟
- ومحمرة.. ونعملها لحضرتك زى ما أنت عاوز.
- الفراخ دى نوعها إيه أصلا؟
- بلدى وبيضا مستوردة.
- بـلاش المستوردة.. كلهـا هـرمونـات.. وخطـر على رجولـة الإنسان.. خلينا فى البلدى.. عندكم فراخ بلدى؟
- عندنا يافندم.
- ياراجل.. مفيش مطاعم فيها فراخ بلدى.
- إحنا بالذات عندنا.. فيه ناس بتطلبها زى حضرتك..

- أنا لسه ما طلبتهاش.
- يعنى حضرتك مش حتاكل فراخ يافندم؟
- ياسيدى لسه.. ماقررتش.. أنت مستعجل ليه؟ وراك حاجة؟
- ماورييش أى حاجة.. أنا هنا لخدمتك.
- الفراخ البلدى دى بتشتروها جاهزة والابتربوها عندكم؟
- لا يافندم بنشتريها.
- مدبوحة.. والا بتدبحوها بنفسكم..؟
- بنشتريها مدبوحة ومتنضفة.. وإحنـا بنضفها تانى زيادة فى التأكيد.
- كـان لازم تربـوها عنـدكم عشـان تضمنوا بتـاكل إيه.. حـد عارف دى تربت إزاى وكلت إيه... أنا فعلا نفسى آكل فراخ بلدى.
- تحبها إزاى يافندم؟
- أنـا ما قلتش عـاوز فـراخ بلدى.. أنـا قلت نفسى آكل فـراخ بلدى.. لكن ده لا يعنى إنى خدت قـرار بأنى آكل فراخ.. قل لى.. أخبار اللحمة إيه النهارده؟
- طازة يافندم.
- ياراجل؟!
- والله العظيم طازة، لسه جاية من عند الجزار..
- جميل..
- حتاخد لحمة يافندم؟
- حاخد لحمة.. حاتعملها لى إزاى؟
- تحت أمرك.. مشـوية.. محمـرة... ستيك.. اسكلوب.. كباب حلة..

– عاوز تفهمنى إنكم بتعرفوا تعملوا كباب حلة.. زى اللى بتعملها أمى مثلا؟

– أنا معرفش والدة حضرتك بتعملها إزاى يافندم.. لكن أحب أقول لسعادتك إن الطباخ اللى عندنا تخرج من قسم كباب الحلة من أعظم معاهد سويسرا.

كويس إنك قلت لى.. الغرب كله يا بنى ما يعرفش يعمل كباب حلة.. كباب الحلة بالذات يتطلب قدرا كبيرا من الأصالة والمعاصرة.

الطباخ بتاعنا أصيل ومعاصر يافندم.

– لو كان أصيل إيه اللى وداه يتعلم فى الغرب وساب تراثه الطبيخى.. فين أيام الفتة اللى فوقيها حتت اللحمة المحمرة اللى تفتح النفس..

– تحت أمرك يافندم.. ممكن نعمل لك طبق فتة أصيل ومعاصر لا يقبل المنافسة.

– الفتة ماتتاكلش بره البيت..

– ممكن نعملها لك يافندم وفوقيها اللحمة المحمرة..

– محمرة فى الزيت؟

– زى ما حضرتك عاوز.. بالزيت بالزبدة. بالسمن البلدى..

– مفيش داعى للمغامرة.. مش حاتعرفوا تعملوها.. إبعد عن اللحمة والفراخ.. أخبار السمك إيه؟

– السمك أخباره عال يافندم وبصحة جيدة وبيسلم على حضرتك..

– أنت بتهزر معايا؟ إنده لى مدير المطعم.

– أنا مدير المطعم يافندم.

– طب هات لى صاحب المطعم..

– هو أنا يافندم..

– إنت عاوز تأكلنى على كيفك.. هو أنا مليش حق أفكر وأقرر اللى هاكله؟

– من حقك يافندم..

– خلاص.. روح هات لى أى حاجة.. مدام عاوز تأكلنى على كيفك.. طب إيه رأيك بقى إنى مش هاكل عندكم.

– والله إحنا فى كل الأحوال تحت أمرك يافندم.

– مع إن من حقى آكل هنا غصب عنك.

– يافندم أنا خدامك.

– أنا مش جاى هنا آكل مجانا.. أنا حادفع فلوس.

– ومن غير فلوس يافندم.. إحنا تحت أمرك.

– أصلى شايفك كده متضايق ومش عاجبك كلامى.. من حقى أفكر على مهلى وأختار الأكل اللى يعجبنى.. حقى.. ولا مش حقى؟

– حقك يافندم.. أنت زبون، والزبون دايماً على حق.

– خلاص.. مش حاتكلم معاك.. روح ابعت لى الطباخ عشان أشرح له اللى أنا عاوزه بالضبط.

– الطباخ روّح يافندم.. كل اللى فى المطبخ روّحوا.. والجرسونات روحوا، والخفير بيستنى حضرتك تقوم عشان يقفل باب المطعم.

– مستعجلين قوى كده ليه؟

– غصب عننا يافندم مواعيد وزارة السياحة.. إحنا في نص الليل دلوقت.. وحضرتك هنا من الضهر.. حضرتك تحب تروّح ولا نقفل عليك المطعم للصبح؟.. إحنا تحت أمرك.

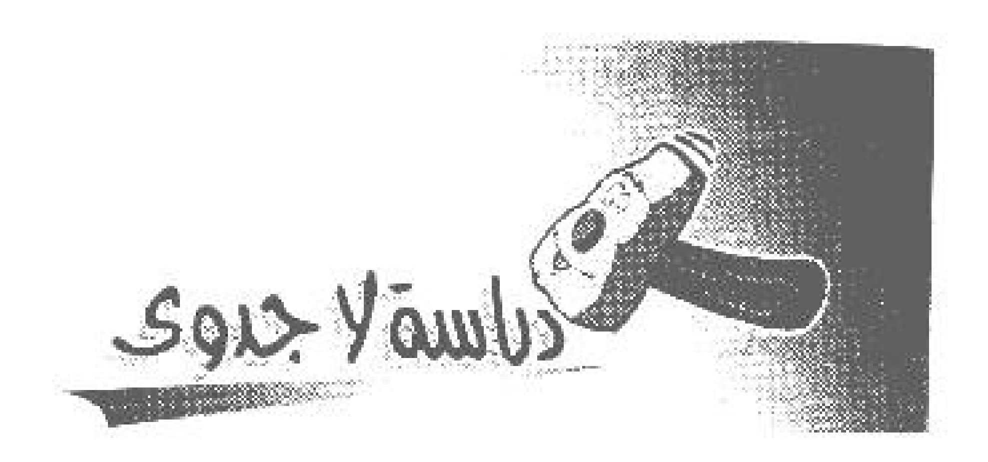
– بتفتحوا الصبح الساعة كام؟

– عشرة صباحاً.

– عالم بلطجية.. عشرة صباحاً؟! القطاع الخاص لازم يكون أنشط من كده.. إسمع أنا حاروّح دلوقت وبكره إن شاء الله حاجيلك.. بعد ما أكون قررت حاتغدى إيه..

– إحنا تحت أمرك يافندم..

***



– ألو.. تعالى فوراً.

– أنا أستعد الآن لدخول الفراش، ألا يمكن تأجيل لقائنا حتى الصباح؟

– لا.. تعالى فوراً.. الأمر لا يحتمل التأجيل.

– حاضر.. جيت ياسيدى.. خير؟

– خير إن شاء الله.. لقد ورثت قطعة أرض كبيرة.. ألف فدان.

– مبروك.. أرض زراعية؟

– زراعية وصحراوية.. وبها ترعة.. وبها محجر.. وبها منجم ذهب لم يستغل منذ زمن بعيد.. وبجوارها بحيرة.

– مشروع مثالى للاستثمار.. أخيرا ستصبح مليونيراً.

– للأسف العمل متوقف بها.. لم أقرر بعد كيف استثمرها.

– المسألة سهلة، الأرض الصالحة للزراعة تزرعها.. والمحاجر

تستغلها ومنجم الذهب تستخرج منه الذهب، والبحيرة تنظفها وتصطاد منها سمكاً..

– وماذا أفعل بالأرض الصحراوية؟

– تستصلحها وتزرعها..

– تكاليف زراعتها أكبر بكثير من الدخل الذي سأحصل عليه عندما أزرعها..

– حسناً.. أتركها صحراء.

– إذا تركتها صحراء فقد تزحف منها الرمال على الأرض الزراعية فتتصحر.

– خلاص.. إبدأ بالأرض الصالحة للزراعة.. أزرعها.

– ومن سيشترى المحصول؟

– عندما يوجد محصول سيوجد المشترون.

– ألا تعرف أحدا يتعهد بشراء المحصول الآن قبل أن نزرعه؟

– أعرف.. لى بعض الاصدقاء يعملون فى هذا المجال.

– ضامنهم؟ هل تضمن لى أنهم أمناء؟

– اعتقد أنهم أمناء.. ومع ذلك ستوقع معهم عقودا مسجلة ملزمة لك ولهم.

– ومن يضمن لى أنهم سيلتزمون بالعقود؟ لا أريد أن اضيع وقتى بين المحامين والمحاكم..

– خلاص.. بلاش تزرعها.

– كيف لا أزرعها؟ هذا جنون.. كيف يكون لدى قطعة أرض بهذه المساحة ولا أزرعها؟

– خلاص.. أجرها لحد.. وبلاش وجع دماغ.

– أأجرها؟ هل تضمن لى أن المستأجر لن يستولى على الأرض؟

– بصراحة لست أضمن لك ذلك.

– كيف تقترح على إذن مشروعا غير مضمون؟

– أسف.. خلاص.. أجل زراعة الأرض.. استغل المحاجر.

– المحاجر في حاجة لديناميت.. والتعامل مع الديناميت هذه الأيام أمر يتسم بالخطورة.

– لابأس.. ضع خطة رقابة محكمة بحيث لا يتسرب الديناميت من المحاجر.

– وهو أنا فاضى لوضع الخطط؟ إفرض وضعت خطة محكمة، واخضعت المحاجر لرقابة فعالة ومع ذلك تسرب الديناميت واستخدم فى شيء سيىء.. كيف سأتحمل هذه المسئولية ؟ هل ستنفعنى عندما يحدث ذلك؟

– أنا آسف.. لم يعد أمامنا إلا استغلال منجم الذهب.. هل هو على أبعاد سحيقة؟ أقصد هل تكلفة استخراجه اقتصادية؟

– من الممكن أن تكون اقتصادية ومن الممكن أن تكون غير اقتصادية.. هذا يتوقف على دراسة الجدوى.

– جميل.. ماذا تقول دراسة الجدوى؟

– حتى الآن ليس لدى دراسة جدوى.. هى تتكلف كثيرا وليس لدى سيولة كافية لدفع تكلفتها، والمؤسسات المتخصصة فى عمل دراسات الجدوى الخاصة بالمعادن تطلب أجورا مرتفعة جدا. لامفر من الانتظار إلى أن أحصل على أرباح من الأرض الزراعية والصحراء

والبحيرة لكى أدفع تكاليف دراسة الجدوى.

– هذا حل سليم، لابد من الانتظار لحين الحصول على هذه الارباح.

– ولكن الأرباح لن تأتى إذا قعدنا وأيدينا مكتوفة، ستأتى فقط بعد استغلال هذه المواقع الاستغلال الاقتصادى الأمثل، لابد من مشروع جديد وجرىء، ينتظم الصحراء والأرض الزراعية والبحيرة والترعة والمحاجر، فكر معى فى مشروع جديد وجرىء، ويلبى احتياجات عدد كبير من البشر.

– بس لقيتها، مشروع يلبى احتياجات كل البشر وليس عددا كبيرا منهم.. قرافة

– ماذا؟

– قرافة.. قرافة كبيرة، الناس منشغلة الآن بالموت، وهم يجدون صعوبة كبيرة فى الحصول على المقابر، لابد من وسايط فى المحافظة ومجلس الحى وغيرهما، ما رأيك فى قرافة كبيرة للمغتربين وبذلك نضمن الحصول على عملة صعبة، المصريون فى الخارج يعيشون هناك بأمل وحيد، هو أن يدفنوا فى مصر، ما رأيك فى أن نسميها قرافة المستقبل، أو قرافة المستقبل الجميل؟

– هل سنحتاج لموافقة هيئة الاستثمار؟

– لأ.. الموت من اختصاص جهات أخرى وهى توافق بحماس على كل مشاريع المقابر.

– جميل.. هذا عن الجزء الصحراوى، ماذا نفعل بالأرض الزراعية؟

– نزرعها نخيلا وصبارا، نخيلا متميزا نستورده من كاليفورنيا، يضمن لنا نوعا جميلا من الخوص لزوم الزيارات، وننشىء بها مكتبة متخصصة تبيع كل أنواع الكاسيتات والكتب التى تتحدث عن الموت.

– جميل.. وماذا عن الترعة؟

– ولاحاجة.. ما تعملش فيها حاجة، حاتتسد لوحدها وتصبح طريقا زراعيا.

– والبحيرة؟

– نجففها وتنضم للقرافة.

– مشروع هايل وجديد وجرىء.. لم يفكر القطاع الخاص من قبل فى عمل مقابر.

– مع أنه المشروع الوحيد المتاح أمامهم.

– ولكن.. ولكن من يضمن لى أن الحكومة عندما ينجح المشروع وينافس مقابر القطاع العام لن تستصدر قرارا بالاستيلاء على هذه القرافة.

– ما تستولى عليها، وأنت مالك، انت حاتكون بعت وقبضت الفلوس.

– ممكن يحطونى تحت الحراسة ويصادروا أموالى.

– هربها.. هربها للخارج؟

– واصرف منين؟

– خلى معاك مبلغ هنا.

– ولما ياخدوه أعمل إيه؟

– خلاص.. سافر بره وعيش بفلوسك.

– إفرض منعونى من السفر..

– عندك حق. يبدو أن هذا المشروع فاشل ايضا، اسمع، ما رأيك فى ألا تفعل شيئا

– الحمد لله.. ريحتنى ياشيخ لقد قررت ذلك منذ البداية، لقد استدعيتك لأتحاور معك فقط لكى أتأكد من صحة قرارى.. تصبح على خير.

***



تميزت الانتخابات البرلمانية الأخيرة فى مصر بأعلى درجات العشق للديمقراطية، فلأول مرة فى تاريخنا يُقتل هذا العدد الكبير من المواطنين «حوالى ٤٥ مواطنا» أمام لجان الانتخابات أو داخلها أو فى الشوارع المؤدية إليها.

هكذا ظهرت صفة جديدة للقتلة هى القاتل الديموقراطى، أى الشخص الذى يقتل من أجل الديموقراطية، وأضيفت هذه الصفة الجديدة إلى الصفات القديمة التى نستخدمها فى صفحة الحوادث، القتل من أجل الشرف، القتل بالأجر.. القتل من أجل القتل.. إلى آخره..

كما ستعرف سجلات الأمن صفة جديدة تضاف لأول مرة للمسجلين الخطرين، فبالإضافة للمسجل خطر سرقات، والمسجل خطر بلطجة وفرض إتاوات، والمسجل خطر تزوير، ظهر مسجل خطر جديد هو المسجل خطر انتخابات وديموقراطية.

ومع ذلك سيستمر كُتابنا يقولون إن العنف صفة غريبة عن المجتمع المصرى باعتبار أن القتل للوصول إلى المجلس النيابى عمل

من أعمال العنف الدموى الذى تعرفه المجتمعات الأخرى الشريرة وليس مجتمعنا الطيب ابن الحلال.

ولكن لماذا قتلت نادية حارسها فى حديقة الحيوان فى أعقاب أسبوع الانتخابات الدامى مباشرة؟ وهل لهذه الواقعة صلة بالعنف السائد فى مجتمع الآدميين؟

يقول الخبر: إن الفيلة نادية مدت زلومتها ولفتها حول الحارس «الذى كان يعد لها طعام الإفطار» وجذبته ناحيتها ثم أوقعته على الأرض وداسته بأقدامها إلى أن أسلم الروح. وفى إحدى الصحف نُشر الخبر تحت عنوان: «اتق شر من أحسنت إليه» باعتبار الحارس كان يحسن للفيلة فعاقبته بالموت.

هناك فى كل خبر، بل فى كل موضوع أو واقعة جملة يمكن اعتبارها جملة المفتاح، إذ هى تفتح لك الطريق لفهم الموضوع كله على نحو صحيح. إنها الجملة التى يبحث عنها المحقق لمعرفة الدافع الحقيقى للجريمة. والجملة هنا هى: «الذى كان يعد لها طعام الإفطار» وهى جملة تفيد معنى الانتظار والترقب. لنتخيل المشهد. الفيلة واقفة جائعة تنتظر على أحر من الجمر بينما الحارس «يعد» لها طعام الإفطار. ولكن الفيلة ليست صبورة، غير قادرة على الانتظار إلى أن ينتهى من إعداد الإفطار فحدث ما حدث.

ولكن ماهى حكاية إعداد الإفطار هذه؟ وما هو الوقت اللازم لإعداد الإفطار للفيلة؟

هل كان يعد لها طبق فول بالزيد وبيض بالبسطرمة وطبق سلطة طحينة ساخنة و «عيش مقمر»؟ وبذلك استغرق وقتاً طويلاً أفقدها أعصابها فتحولت لقاتلة؟

إن طعام الفيلة هو نوع من العلف الجاف، هذا هو كل ما فى الأمر. أى أن إعداد طعام الإفطار لا يستغرق أكثر من عدة ثوان. فما هى الحقيقة إذن؟ كيف تحولت الفيلة الطيبة إلى قاتلة؟ وماهى الأسباب الحقيقية لذلك العنف الفيلى الذى لم نعرفه من قبل فى فيلة حديقة الحيوان على الأقل؟

وجهة نظرى أن الحارس لم يكن يعد لها طعام الإفطار، بل كان يجهزه للزبائن. كل حيوانات الحديقة يصرف لها الطعام فى مواعيد محددة وبكميات محددة، أما الفيلة فهى - على ما أتصور - تأكل عندما تقوم بعمل تعظيم سلام لزوارها من رواد الحديقة مكافأة لها وليس حقاً من حقوقها. سيادتك ومعك أطفالك تمرون على مكان الفيلة، تعطى طفلك مبلغاً من المال ليقدمه لنادية، وتمد زلومتها وتتناول المبلغ لتعطيه للحارس، فيقول لها: تعظيم سلام للبيه الصغير يانادية.. فترفع نادية على الفور زلومتها عالياً فى رشاقة مؤدية التحية للبيه الصغير.

وهنا - هنا فقط - يكافئها الحارس بإعطائها حزمة من العلف الجاف. أى أن الطعام مرتبط بوجود زبون تضرب له نادية تعظيم سلام. وهى صفة يشترك فيها مع نادية عدد كبير من البشر، اضرب تعظيم سلام لشخص ما تحصل على طعامك وعلى ما هو أكثر.

ولو وُجد زبون واحد يتفرج على نادية قبل لحظة القتل هذه لما فقدت نادية أعصابها فقد كان من المؤكد أنها ستأكل وستضرب «تعظيم سلام» ثم تأكل. ولكن من الواضح أنه لم يكن هناك زبائن، كل البشر ولمدة أسبوع كامل كانوا منشغلين بالانتخابات لا أحد ذهب

ليرى نادية، لم تضرب «تعظيم سلام» لأحد، وبالتالي لم تأكل ما فيه كفايتها في أسبوع اشتد فيه البرد والعنف والديموقراطية، وبذلك نصل لحقيقة هامة، العنف ليس مثل المطر يمكن أن نحمي أنفسنا منه باللجوء لمظلة ما.. العنف مثل الهواء الخانق من الممكن أن يتسلل إلى سكان أقوى البروج تشييدا. العنف هواء يتسلل إلى البشر والحيوانات أيضا.

ليس لنا أن نلوم نادية على إحساسها بالغضب الشديد لأنها جائعة، وليس لنا أن نلومها على أنها لم تتبين السبب الحقيقي لغياب الزبائن وبالتالي غياب الطعام. هي مجرد حيوان غبي. ولو كانت على درجة من الوعي والعقل لكان من الممكن أن تقنع نفسها أن الامبريالية العالمية هي السبب في متاعبها، وبذلك تحصل على الهدوء الفلسفي الكافي للسيطرة على آلام الجوع.

في هذه الحالة كانت ستتسع أمامها الفرصة وتترك الحديقة لتعمل كاتبة كبيرة، ولكن أليس من المدهش أن خبرة الحارس الطويلة وهو الذي بلغ من العمر ٦٤ عاما لم تنبهه إلى أنها جائعة إلى حد القتل؟

أليس من الغريب والمدهش أنها ضربته بزلومتها قبل عدة أيام فكسرت له أسنانه؟!.. لم ينتبه لدلالة ذلك أحد. لا هو ولا رؤساؤه، مع أن الدلالة واضحة: أنا أكتفي بضربك الآن لتحذيرك.. إذا واصلت موقفك مني ولا مبالاتك بي وعدم اهتمامك بإطعامي.. سأقتلك.

لماذا لم ينقله رؤساؤه لموقع آخر؟

مستحيل.. فقد اكتسب خبرة طويلة في مكانه. لماذا لم يطلب هو

نقله لمكان آخر؟ مستحيل، لأنه يُرزق في هذا المكان فقط، هل يذهب لحراسة أقفاص النمور والأسود، هي لا تضرب «تعظيم سلام» لأحد. حياكل منين؟ هو يُرزق لأنه حارس نادية.

لكنه تجاهل معنى الحراسة فكفت نادية عن أن تكون فيلة وتحولت لوحش كاسر.

لماذا لم يخرج هذا الحارس إلى المعاش في سن الستين؟ لماذا بقي في وظيفته؟ بقي في وظيفته لإنه من الممنوع بوجه عام أن يترك شخص مكانه، لأنه يؤدي عمله على الوجه الأكمل، هل اشتكى منه زوار الحديقة؟ لأ.. هل اشتكت منه نادية وبقية الفيلة؟.. لأ.. خلاص. كل واحد يبقى في مكانه إلى الأبد.

هل عرفت الان لماذا قتلت نادية حارسها؟

هل عرفت الآن لماذا قتل الناس بعضهم البعض في الانتخابات؟

***



تناول الأسطى عبده النجار الاصطباحة ثم طعام الإفطار وحبس بعدة كراسي دخان معسل ثم وقف أمام البنك الخشبي فى ورشته الصغيرة وبسمل ثم دعا الله أن يعينه على الشقاء. أخذ يستعرض قطع العدة أمامه ثم قال لصبيه: ياله ياحندق.. روح للأسطى ابراهيم وقل له بيصبح عليك الأسطى عبده لو سمحت تسلفنا الشاكوش بتاعك نص ساعة.. بس إجري.. أوعى تتأخر.

انطلق حندق يجري مسرعا وعاد يلهث بعد ساعة فقد كانت ورشة الأسطى إبراهيم بعيدة قال: الأسطى إبراهيم بيقول لك إنه شغال بالشاكوش فى شغل لازم يسلمه النهارده.

طب روح للأسطى محمود وقل له بيصبح عليك الأسطى عبده وبيقولك بأمارة ما شافك فى السوق امبارح وسلم عليك، لو سمحت تسلفنا الشاكوش بتاعك.. بس جري.

وانطلق حندق مسرعا وعاد بعد ساعة فقد كانت ورشة الأسطى محمود بعيدة جداً. قال وهو يلهث: الأسطى محمود بيقولك إن الإيد بتاعت الشاكوش انكسرت وبعته عند الخراط يعمل له إيد جديدة.

لا حول ولا قوة إلا بالله.. طب اسمع، اطلع جرى على الأسطى خليل وقل له الأسطى عبده واقف عطلان والشاكوش عند واحد زبون.. وبيطلب منك الشاكوش بتاعك ربع ساعة.. بس جرى ياحندق.. ما تتأخرش.

وانطلق حندق جارياً وعاد بعد ساعتين فقد كانت ورشة الأسطى خليل بعيدة جداً.. جداً.. جداً وعاد وهو يكاد يموت من التعب: الأسطى خليل بيتأسف لك قوي وبيقول لك إن الشاكوش بتاعه خده الصنايعي يقفل بيه شغل عند واحد زبون.

طب اسمع.. استريح شوية وروح للأسطى عطية.. طب روح للأسطى سيد، طب روح للأسطى أحمد.. طب روح للأسطى مسعد.. لا أمل، لا أحد يريد أن يستغنى عن شاكوشه.

كان النهار قد انتهى تقريباً، استولى اليأس على الأسطى عبده. فقال لصبيه حندق: عالم ماعندهاش مروءة.. أمرنا لله ناولنى يابنى الشاكوش بتاعنا.

* * *

لماذا لم يبدأ الأسطى عبده يومه بأن يطلب من صبيه أن يناوله الشاكوش بتاعهم؟ لماذا ضيع كل هذا الوقت؟ لماذا عذّب صبيه حندق فى مشاوير لا ضرورة لها طول النهار؟ لماذا أراق ماء وجه عند زملائه النجارين؟ لماذا عطل نفسه؟

- ليس أصدق على الأرض من الحدوتة الشعبية القصيرة، هى كتاب ومرجع، وهى قاعة محاضرات، وهى معمل للبحث العلمى، هى الكتالوج الذى نتبين فيه ميكانيزمات العقل والسلوك البشرى، هى طريقة لمن يبحثون عن الطرافة، وهى هادية ومرشدة لمن يبحثون عن الهدى والرشاد.

- هل الأسطى عبده لا يريد أن يستهلك العُدة الخاصة بورشته؟ جائز، ولكن الشاكوش بالذات قطعة عدة تعمل لعشرات السنين دون أن تفقد فاعليتها، بل إن الشاكوش بالذات ينتقل من الأجداد إلى الأحفاد.

- ماذا تقصد هذه الحدوتة الشعبية القصيرة؟

- هى باختصار تلقى بالضوء على خاصية فى العقل البشرى تدفع بعض الناس إلى استهلاك كل الفرص المتاحة إلى أن ترغم على اتخاذ القرار الصحيح والذى تعلم مسبقاً أنه صحيح منذ البداية، العقل البشرى الطبيعى - إذا كان له وجود - يعمل بموجب مبدأ يقول له: سأفعل ما هو طبيعى وبديهى.. أنا الآن أقف أمام البنك لأعمل.. ناولنى ياحندق الشاكوش.

أما عقلية الأسطى عبده فهى تعمل بمبدأ يقول: لابد أن يرغمنى احد على أن أفعل ما هو صحيح، سأتجنب فعل ما هو صحيح وحتى إلى أن يرغمنى أحد أو حدث أو شىء على الفعل الصحيح أو الاتجاه السليم، ليس مهماً الوقت الذى أضيعه، الزمن لا أهمية له، والعمل والإنجاز أيضا لا أهمية لهما، لابد من الاستمتاع بالمحاولات العديدة الفاشلة للحصول على شاكوش من الآخرين، الخسائر ليست مهمة بالمرة.

أخيرا أبلغت حكومة العراق الأمم المتحدة أنها على استعداد للتعاون التام فيما يختص بالأسلحة الكيماوية والجرثومية وبذلك يحق لها أن تطلب رفع الحظر عليها، ذلك الحظر الذى كان نكبة على العراق وحكومة العراق وشعب العراق. بعد خمسة أعوام من المماطلة والمماحكة واللف والدوران، بعد خمسة أعوام من الضياع غير المسبوق فى التاريخ، بعد كل ذلك الكم من الخراب، الحكومة العراقية تقول: ناولنا ياحندق الشاكوش بتاعنا.

السؤال هو: هل فى ثقافتنا العربية ما يجعل العقل يعمل بموجب هذا المبدأ؟ مبدأ الشاكوش وعم عبده؟ ما هو الخطأ المسئول عن ذلك فى تراثنا أو تربيتنا؟ لماذا نسعى سعياً للإرغام؟ أم أن ذلك السلوك تعبير عن انعدام الإحساس بالمسئولية؟ أو انعدام الرغبة فى العمل؟ لنواجه أنفسنا بشجاعة. هل العمل ممجّد فى تراثنا؟

من المؤكد أن العمل من ثوابت العقل عند المصريين، الزراعة، الري، البناء، الحكمة، الدولة.. بالتأكيد كانت مصر تستيقظ فى الصباح الباكر كل يوم وتمسك بشاكوشها الخاص وتعمل. للأسف هارون الرشيد لم يكن حاكماً مصرياً، لذلك كان من حقه أن يقف فى شرفة قصره ناظرا لسحابة بعيدة وأن يقول لها: أمطرى حيث شئت فسوف يأتينى خراجك.

لم يكن العمل مطلوبا فى ذلك الوقت، المطلوب فقط كان انتظار الخراج القادم من أمطار بعيدة، ما العمل الآن والسحب تمطر فقط فى أوربا وأمريكا واليابان ولا يأتينا منها الخراج.. بل الديون. الناس فى العالم كله تعمل بينما نحن نتناقش طول الوقت باحثين عن الطريقة

المثلى للامتناع عن الفعل، طول النهار ننتظر شاكوشاً لن يأتى أبداً، بعبقرية نادرة وبجهد جهيد نؤجل اللحظة التى نقول فيها: أمرنا لله ياحندق.. ناولنا الشاكوش بتاعنا.. هيا ياحندق نزرع الصحراء.. تعال ياحندق نطعم كل هؤلاء البشر، تعال نملأ عقولهم بالعلم وقلوبهم بالموسيقى، اقفل مخازن الكلام ياحندق..

نحن جزء مهم من هذا العالم، وعلينا أن نستخدم مفرداته، علينا أن نحصل على احترامه وتقديره لكى يساعدنا ونساعده..

ناولنى يابنى الشاكوش بتاعنا.

***



القطر اللى وقف

- أنت متهم بـأنك أوقفت القطـار التـوربينى السريع فى طنطا. وهـذا القطار بـالتحديـد ممنوع أن يتـوقف لأى سبب من الأسباب من الإسكندرية إلى القاهرة.

- لم أوقف القطار. الذى أوقفه هو سـائقه. أنا فى النهاية راكب. أنا شخصيا فوجئت أنه توقف فى طنطا فتصورت أن معجزة قد حدثت ونزلت على الفور وأنا أردد : يا ما أنت كريم يارب.

- هل طلبت من نـاظر المحطـة أن يتصل برئيس هيئـة السكك الحديدية ليوقف القطار فى طنطا؟

- لا .. لم يتم الأمر على هذا النحو. دعانـى ناظر محطة سيدى جابر إلى فنجان قهوة .. وفى هذه الدقائق قبل وصول القطار إلى سيدى جابـر. كنت أردد دعاءً هـامساً تعودت أن أدعـو به عنـد السفر: اللهم أوصلنى سالما إلى مكتبى وبيتى وأسرتى.. يـارب القطر يقف فى طنطا..

يارب القطر يقف فى طنطا.. يارب ياكريم ياقادر على كل شيء القطر يقف فى طنطا.. إلهى يارب ببركة المرسى أبو العباس القطر يقف فى طنطا. يبدو أن ناظر المحطة يتمتع بحاسة سمع قوية، سمعنى وأنا أبتهل إلى الله هامسا. فعرف أننى أريد النزول فى طنطا.. فاتصل برئيس السكك الحديدية الذى وافق على وقوف القطار لمدة عشرين ثانية.. عشرون ثانيه فقط. ثلث دقيقة. كانت كافية، لأنزل.. حصل إيه يعنى.. خربت الدنيا؟

- هل مارست ضغوطا على رئيس السكك الحديدية؟

- أنا لا أعرفه.. ولم أتكلم معه، ولم يتكلم معى.. ثم أنا عندى سؤال: ألا تتوقف الطائرات أحيانا لظروف قهرية؟

- ذكرت أنك كنت تردد دعاءً هامسا تقول فيه: يارب القطر يقف فى طنطا.. لماذا؟

- كنت أريد دخول الحمام.. حمامات القطارات ليست على مايرام... القطر توربينى، بس الحمام مش توربينى.. أليست هذه رغبة مشروعة جديرة بالاحترام؟

- قيل إنك كنت تريد اللحاق بمشاهدة مباراة كرة قدم؟

- نعم، ولكن طبعاً بعد دخول الحمام.. حسنا، لنفرض أننى كنت حريصا على مشاهدة المباراة، هل أحاسب على عشقى للرياضة، التى هى جزء من حب الوطن؟ هناك رؤساء دول يحرصون على مشاهدة مباريات فريقهم القومى داخل وخارج بلادهم، إن وجود مسئول كبير فى الملعب يدفع بالحماس فى قلوب اللاعبين ويضمن لهم الفوز.. أو على الأقل يخفف عنهم ألم الهزيمة.. إن دوافعى لإيقاف

القطار.. أقصد الدعاء لوقوف القطار.. كانت كما ترى وطنية تماما.

- ولكن الركاب استاءوا.

- ياسلام؟؟؟!!!.. استاءوا!.. ليه؟ ..حطيت لهم د.د.ت. على القطر؟ هؤلاء الناس الذين يشربون مياها ملوثة ويأكلون بطاطس مسمومة ويستنشقون هواء غير صالح وترتفع عليهم تكاليف الحياة فى كل لحظة.. استاءوا عشان القطر وقف تلت دقيقة؟!

- لقد عطلت مصالحهم.

- اسمع ياسيدى المحقق.. أنا موظف قديم وأعرف جيدا أن تعطيل مصالح البشر ليس تهمة.. بل هو منهج فى العمل.. بل المنهج الصحيح.. الإنسان بطبيعته طماع مش وش نعمة.. لو خلصت له مصالحه بسرعة يطمع فيك ويتقدم لك بطلبات جديدة فى كل لحظة، وبذلك تتعطل مصالح الحكومة.. واسمح لى ياسيادة المحقق، هل لديك شكوى من أى راكب؟

- الصحفى اللى كتب الحكاية.

- آه.. يعنى كلام جرايد.. إنت بتصدق كلام الجرايد يابيه؟

- الصحفى كان راكب وحضرتك اعترفت أنك نزلت فى طنطا.

- ولماذا كتب الصحفى هذه الحكاية.. ماهو الدافع؟ لماذا إثارة البلبلة والتشكيك؟ مايروح يتشطر على قانون الصحافة.. خلاص اتحلت مشاكل مصر عشان يكتب عن مشكلة القطر اللى وقف؟!

- الواقع أن هذه هى بالفعل مشكلة مصر.. الاستثناء من القاعدة.. القاعدة ألا يتوقف القطار أثناء سيره.

- لكل قاعدة استثناء ياسيادة المحقق.. إنه الاستثناء الذى

يؤكد القاعدة.. أنا وقفت قطر .. ماوقفتش مسيرة الحياة.. لم أوقف خطط التنمية.. لم أوقف الإصلاح الاقتصادى.. لم أوقف المشاريع الاستثمارية.. لم أوقف مسيرة الديمقراطية.. قلت لحضرتك الحكاية كلها عشرين ثانية.

– ما هو لو كل واحد مسئول يعطل مصالح الناس عشرين ثانية، شوف إنت بقى اضرب عدد المسئولين فى عشرين ثانية فى الستين مليون.. معنى ذلك أن نتوقف فى مكاننا فى الوقت الذى يجب علينا فيه أن نسعى للحاق بالقرن الواحد والعشرين.

– والله أنا ماعرفش إن القطر كان رايح القرن الواحد وعشرين.. أنا أعرف إنه كان رايح محطة مصر.. إنت بتصدق ياحضرة المحقق إن فيه حد مهتم يروح القرن الواحد وعشرين.. منتهى أمل أى واحد يوصل القرن السبعتاشر..... ومع ذلك ولكى أبعد عن نفسى تهمة تعطيل الناس عن الذهاب للقرن الواحد والعشرين، أنا مستعد أدفع لهم التعويض اللازم.. نشوف الدقيقة بتاعة أتخن واحد فيهم بكام وأدفع بس الأول يرفعوا قضية.. عشان الحكومة تدفع، بشرط كل واحد يرفع قضية لوحده.

– ولما يكسبوها؟

– أستأنف.

– ولو كسبوا الاستئناف؟

– أحولها لمحكمة النقض.

– ولو كسبوها؟

– أعمل إشكال فى التنفيذ.. وأقعد استشكل لحد ما يموتوا.

– ولو صدر حكم نهائى واستهلكت كل الاستشكالات؟

– يبقوا يقابلونى لو نفذت الحكم.. ولذلك من الأفضل إنهم يقبلوا اعتذارى وما يعطلوش نفسهم.

– كيف سيتم فى تصورك الاعتذار للركاب؟

– سأستدعيهم إلى مكتبى واحد واحد.. وأعتذر لكل واحد على حدة.

– الا ترى أنه من الأفضل أن تنشر اعتذارك علنا؟

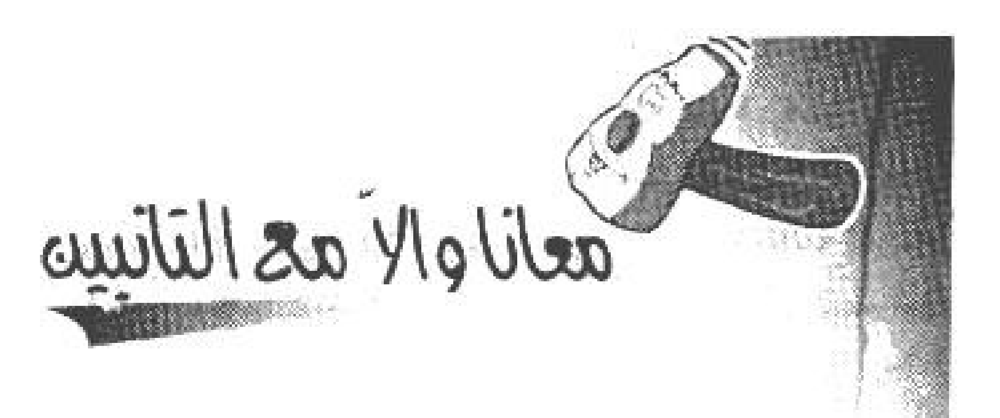
– بشرط أن تكون هذه قاعدة جديدة.. يُسن بها قانون.. كل موظف عام يخطىء فى حق المواطنين، يعتذر لهم علنا فى إعلان منشور.. وبذلك تقوم أقسام الإعلانات فى الصحافة بتحصيل عدة مليارات من الجنيهات كل شهر.

– أليست هناك طريقة أخرى توفر على الحكومة هذه المليارات؟

– نعم، الاعتذار علنا لكل الركاب.. سأنشر إعلانا على حسابى، أطلب منهم التجمع فى الاستاد وأقيم لهم حفل شاى أو عشاء، بشرط أن يقام لى تمثال من ذهب بوصفى أول مسئول مصرى فى التاريخ يعتذر للمصريين عشان وقف قطر.. يا سيادة المحقق، حضرتك مش غريب.. أى مسئول قديم عطل مصالح ناس بعدد شعر راس كل أعضاء مجلس الشعب.. لماذا هذه الحملة ضدى..؟ مش فاهم.

– ولا أنا..!!

***



معانا والا مع التانيين

فوجيء الرجل وهو يسير ليلا فى شارع مظلم بجماعة من البشر المتهوسين تخرج عليه شاهرة المدافع الرشاشة وقد استولت عليها نوبة عصبية وحشية، صاحوا فيه: إنت مع مين.. معانا والا مع التانيين؟

استولى الرعب على الرجل ولكنه استجمع قوته وصاح فى تهذيب وتوسل: هو حضراتكم مين والتانيين مين؟

وجاءته الإجابة من عشرات الحناجر تصرخ فى غوغائية: انطق.. قول.. معانا، والا مع التانيين؟

أجاب فى رعب: .. معاكم.. معاكم..معاكم.

وهنا انطلقت الرصاصات تمزق جسم الرجل وهم يصرخون فى ابتهاج: معانا؟ طب خد.. إحنا التانيين.

هذه نكته مصرية دما ولحما، فيها كل مميزات النكته المصرية، السخونة السرعة، التركيز القدرة على رسم صورة لملامح واقع يمر به العقل الجمعي فى لحظة معينة . ولعل ما يلفت النظر فيها أنها المرة الأولى - على ما أعتقد - التى تدخل فيها المدافع مفردات النكتة

المصرية فقد كان المسدس غالبا هو المستخدم فى النكتة المصرية مثل ذلك الفتى الذى أراد أن يقتل عدوه فوضع له مسدسا فى الشوربة.

والنكتة بشكل عام تفقد كثيرا من تأثيرها عند قراءتها حيث ينقصها عنصر مهم يعتبر جزءا لايتجزأ من بنائها الإبداعى وهو «قائل النكتة». فهو ليس ساعى بريد محايد يوصل رسالة لايهمه محتواها ولكنه مساهم أصلى فى بنائها وصاحب مصلحة فى وصولها للمرسل إليه.

وهو عادة شخصية أقرب للاكتئاب تنتهز فرصة العثور على نكتة جديدة فيقوم بتسليمها على الفور للآخرين بهدف مشاركتهم لحظات الاستمتاع التى تعقب النكتة.

والنكتة المصرية بناء متميز يحترم الضعف الإنسانى ولايسخر منه، إبداع مسئول عن الاستنارة والتقدم، وهى تنبه وتحذر فى عطف ونبل، لذلك سيكون من السهل عليك اكتشاف النكت الأجنبية التى يتم تمصيرها لأهداف سياسية لخلوها من عناصر التنبيه والتحذير والعطف واعتمادها على الإهانة المباشرة وزوايا العدوان الحادة.

وأنا أتصور أنه توجد فى مصر جماعة من البشر فى مكتب ما تقوم بجمع هذه النكت وتحليلها والتعرف على هدف العقل الجمعى منها ثم ترفع تقريرها إلى مكتب آخر فى الغالب مزود بمفرمة كبيرة مخصصة لفرم كل الأوراق التى تحتوى على آراء وأفكار صحيحة. من حسن حظى أننى أقدم تقريرى إلى القارىء مباشرة لينتفع بها فى لف السندوتشات للأولاد فى الصباح وهم ذاهبون إلى المدرسة أو يفرشها على ترابيزة المطبخ أو على رفوف النملية.

نعود للنكتة، هى تصف فى بناء عبقرى وفى أقل من عشرين ثانية حالة حصار ثقيلة ورعبا من خطر غوغائى قد يفاجئنا فى أى لحظة فى إطار من العبثية. لا وسيلة تحمى بها نفسك لأنك لا تعرف طبيعة المعركة الدائرة ولا أطرافها. اختلطت الصفوف والجبهات ببعضها بعض فلم تعد تعرف ضد من أنت، ولا من هو ضدك، أو لماذا هو ضدك؟ سقط المنطق البسيط وفشلت أبسط وسائل التعرف على الأشياء فى التعرف على الأشياء لن تستطيع النجاة بأن تقول أنا معكم ولست مع «التانيين» لسبب بسيط قد يكونون هم أنفسهم التانيين» وبذلك يكون العدو هو كل ماهو خارج جلدك، أما هذه التقسيمات والجبهات والجماعات والفئات المحيطة بك فليست أكثر من شكل ومظهر خداع تعمل على الإيقاع بك والقضاء عليك. أسمعوها منى ملخصة وأجرى على الله .فأنا أعلم أنكم تحبون الملخصات. العقل الجمعى فى مصر فى هذه المرحلة يرى خطرا كبيرا فى السيحان وفقدان الحدود بين الجبهات وانعدام وسائل التحديد والتعريف والتعرف.

ومن الطريف أنه بقليل من التأمل نكتشف أن هذه النكتة من ناحية البناء الدرامى هى إعادة صياغة للمشهد الشكسبيرى المشهور فى مسرحية «يوليوس قيصر». فبعد اغتيال قيصر تمكن «بروتس» من إقناع الجماهير فى خطبة غوغائية مبدعة وبليغة أنه وزملاءه قتلوه دفاعا عن الديموقراطية فقد كان فى طريقة ليصبح ديكتاتوراً ثم وقف «أنطونيو» بعده ليلقى خطبة أكثر غوغائية وبلاغة يثبت فيها أن هذا الاغتيال لا صلة له بالديموقراطية ولايحزنون ، وأن القتلة ليسوا أكثر من مجموعة من الأوغاد القتلة المتآمرين . وهنا اشتعلت الجماهير حماسا وخرجت إلى الشارع بحثا عن المتآمرين للاستمتاع بتمزيقهم

إربا إربـا . وفى أحد الميادين قابلـوا شخصا فصاحـوا فيه: من أنت؟.. انطق؟.. أجب؟.. تكلم؟.. أين تسكن؟.. متزوج أم أعزب.. ماهو اسمك.. مهنتك؟

تلعثم الـرجل وهـو يجيب فى رعـب: أين أسكن؟ أسكن بجـوار الكابيتول.. متزوج أم أعزب؟ أنا أعزب.. أسمى؟.. «سنا»

قاطعوه صارخين فى فرحة وحشية: آه.. سنا.. اقتلوه.. قطعوه.

صرخ الـرجل مـوضحا فى هلع: أنـا سنـا الشـاعر.. أنـا سنـا الشاعر.. الشاعر.. الشاعر..

فكانت الإجابة هى: اقتلوه لأشعاره الرديئة.

كان أحد المتـآمرين اسمه سنا بالفعل ولكن هذا سنـا آخر، هو سنا الشـاعر، ولكن لا أهميـة لذلك عند الغـوغاء. المهم هـو الاستمتاع بـالقتل ثم البحث بعد ذلك عن سبـب شبه مقنع للعـدوان.. قد يكـون الدين أو الـديمقراطية أو الاشـتراكيـة أو الثورة العالمية أو الـوطنية أو الوحدة العربية أو حتى الحرية ذاتها.

السبب هنا ليس أكثر من غطاء لـوحشية بعض الناس والرغبة التى لاتقاوم فى الاستمتاع بهذه الوحشية تحت أى شعار.

والله أنـا أعرف كتـابا كثيرين تقـدميين ومعتدلين ومستنيرين يمسكـون بالقلم لعجـزهم عن الإمساك بـالسكين والوقـوف بها على الرصيف انتظارا لخروجنا من بيوتنا.

***



الـوقـت: منتصف الستينـات، أول الشهـر، وقـت خـروج الموظفين من عدة وزارات.

المكان: شارع لاظوغلى.

عربـة نقل كبيرة محملة بـالصفائح تخترق الشـارع على مهل، وقـد امتـلا بـا لموظفين الخارجين من عـدة وزارات: الصحـة، الماليـة، الداخليـة، التربية والتعليم، إدارة التأمينـات والمعاشات. العـربة النقل تشق طريقها بصعـوبة فى الشارع المزدحم، فجأة يظهر شـاب يرتدى بدلـة أنيقة ومعه شخص آخـر يرتدى جلبـابا وفوقـه معطف، الشاب يصيح بصوت مرتفع: قف عندك.

السـائق يتوقف على الفور، كما يتوقف أيضا كل من فى الشارع، بلجهة آمرة تدل على أن صاحبها من أهل السُلطة: انزل من العربية.

السـائق ينزل من السيارة وقد ابيضَ وجهه من الخوف.

- رخصتك ورخصة العربية واركن لى على جنب.

يناولهم له على الفور ويركن السيارة بجوار الرصيف.. الموظفون تجمعوا الآن بالمئات حول المشهد، أكبر عدد من المتفرجين يمكن تخيله. كان من الواضح أن الشاب الأنيق ضابط مباحث أو مخابرات، وأن مرافقه يعمل مخبرا.

- الصفايح دى فيها إيه ياجدع أنت؟

- والله يافندم.. أنا ماليش دعوة بحاجة، أنا عبد المأمور..

- مش عاوز تقول فيها إيه وحياة أمك؟

الضابط يلتفت إلى المخبر: ياعبده.. اطلع نزّل صفيحة من دول.

زاد فضول الناس وانفتحت شهيتهم للفرجة، احكموا الحلقة حول المشهد، لابد أنهم على وشك مشاهدة ضبطية مخدرات كبرى.

المخبر يصعد العربة ويتناول صفيحة وينزل بها، أحد الواقفين يناوله فوطة ينظف بها الصفيحة المتسخة.. الضابط يمسك بالصفيحة بحذر..

- الصفيحة دى فيها إيه يا ابن الـ.....؟

السائق وقد بلغ به الرعب منتهاه: والله العظيم ما اعرف حاجة.

- عاوز تقول إيه يامجرم؟.. إحنا الى حطينا لك الصفيحة؟.. ده إحنا حوالينا ألفين شاهد.. الصفيحة دى فيها إيه ياسوّاق؟.. مش عاوز تتكلم.. بلاش.. انا ح اعرف أنطّقك بعدين.. معاك عدة؟

على الفور يتطوع أحد الواقفين: بعد إذنك ياباشا.

يخرج مفكا ويبدأ فى فتح الصفيحة، يمد أصابعه فيها ثم يلحس أصابعه.. يصيح صيحة هائلة يهتز لها ميدان لاظوغلى: سمن.. سمن بلدى..

الضابط بدوره يمد إصبعا بحذر داخل الصفيحة، يتذوق، فعلا سمن بلدى.

تمتد عدوى الرغبة فى التذوق، تنتقل الصفيحة بين الحشد الكبير، ثم تختفى.. لا أحد يعرف من كان صاحب النصيب..

ويبدأ التحقيق فى الواقعة فى الموقع وأمام الشهود.

- كنت ح تودى فين السمن البلدى ده؟

- والله ياباشا أنا ماليش دعوة..

وهنا تبدأ المشاهد الساخنة التى يحبها المتفرجون كثيرا، السلطة تضرب الحرامى، ينهال عليه صفعا وركلا: اتكلم يا ابن الـ.... موديها فين؟

من أجمل المشاهد عند الجماهير الطيبة، رؤية السلطة وهى تضرب الآخرين، لذلك ارتفعت الصيحات: إديله ابن الـ..... إديله..

يعود الضابط للصفعات واللكمات والشلاليت: موديها فين يا ابن الـ....؟ انطق..

- موديها بنى سويف..

- ح تبيعوها بكام فى بنى سويف؟

السائق لايرد، يستأنف الضابط ضربه بين صيحات التشجيع، وأخيراً ينطق السائق: هم يابيه اللى ح يبيعوها.. أنا ماليش دعوة.. ح يبيعوها بخمسة وعشرين جنيه..

- خمسه وعشرين جنيه ياكفرة ياأعداء الشعب.. الحكومة بتستورد السمنة دى وبتسلمها لكم بأربعة جنيه.. عشان الشعب يطبخ بالسمن البلدى.. والمفروض تتباع بخمسه جنيه.. جنيه مكسب فى الصفيحة كفاية قوى.. بس إنتم حرامية ومجرمين.

- والله ياباشا أنا ماليش دعوة.. ده المعلم هو.

- وهو أنا ح اسيب المعلم بتاعك يا ابن الـ..... أنا ح اصادر الحمولة دى كلها دلوقت.. قدامى على الوزارة.

يرتفع أحد الأصوات صائحا بحزم: ياباشا.. عقابا ليه لازم نشترى إحنا السمن بخمسة جنيه..

تتعالى هتافات الجماهير: صح.. صح.. صح.. هو ده عقابه.

-لا.. عقابه إنه يبيع بأربعة ونص ياللا ياابن الـ..... كل الصفائح دى حا تتباع قدامى دلوقت.. بس باقول إيه: أرجوكم.. كل واحد صفيحة.. ماحدش ياخد أكثر من صفيحة..

فى لحظات اختفت حمولة السيارة من السمن البلدى، واختفت السيارة واختفى الضابط والمخبر.. وكل من أسعده الحظ بشراء صفيحة دخل بها على زوجته وكأنه يحمل كنزا.. منذ سنوات طويلة لم يدخل السمن البلدى بيوتهم..

وانكشفت الحقيقة ..كانت الصفائح كلها ممتلئة بالماء.. والمشهد كله لم يكن أكثر من عملية نصب...

* * *

هذه عملية نصب مبدعة تفريقاً لها عن عمليات النصب الوحشية، ونقصد بالوحشية عمليات النصب التى تجهز على

الضحية إجهازا، مثل توظيف الأموال مثلاً، أما عملية النصب المبدعة فهى تصيب الضحية بإصابة طفيفة للغاية، ومن النادر أن يعمل النصاب المبدع بمفرده، لابد من وجود مجموعة عمل موهوبة فى فن التقمص والتشخيص.

والحصول على المال ليس هو الهدف الأساسى فى عمليات النصب المبدعة، وإنما الاستمتاع بعملية النصب نفسها، أى الحصول على البهجة الناتجة من الإبداع الجماعى فى عملية النصب، هى موهبة مسرحية من الدرجة الأولى فقط تنقصها الأخلاق، ومع ذلك فهى أقل أنواع الجرائم فى مصر شرا.. والمادة الخام فيها، أى الفكرة الأساسية فيها، هى رغبة العقل البشرى فى تصديق مايريد ويرغب.. وسقوط القدرات النقدية التى تميز بين ماهو صحيح وزائف..

تبحث عن الشفاء، يتقدم لك النصاب بطريقة بلهاء تناسب بلاهتك..

تبحث عن الحب، يقدم لك حجاب المحبة..

لا أحد بين الواقفين فى شارع لاظوغلى فى ذلك اليوم تساءل وهل مصر تستورد السمن البلدى؟.. وهل هناك دولة أخرى على الأرض تعرف السمن البلدى؟...

***



الطريق الزارعى، سيارة ملاكى تدخل محطة البنزين يقودها شخص فى الخمسين من عمره سنسميه الأستاذ محفوظ، نظرات ترحيب غير عادية تصحبها ابتسامات عريضة ترتسم على وجوه العاملين بالمحطة، يتوقف محفوظ بجوار طلمبة البنزين.

فل تانك من فضلك ٩٠.

عدد من عمال المحطة يتجمعون حوله، بدأ يشعر بالقلق.

قال أحد العمال ويبدو أنه مهم: حضرتك أول مرة تموّن من المحطة دى؟

- ايوه.

وتتوهج نظرات الاعجاب وتتسع ابتسامات الترحيب.

- مبروك الجايزة يافندم.. حضرتك الزبون رقم ١٥٠٠٠٠

السنة دى.. مبروك لقد حصلت على الجائزة الأولى.

- جايزة إيه؟

حاتعرف كل حاجة يا فندم.. من فضلك تركن على جنب.

ركن صاحبنا السيارة فى دهشة ونزل منها، اصطحبوه لركن بعيد، ترابيزة صغيرة فوقها شمسية ملونة أنيقة يجلس تحتها أحد الموظفين وأمامه أوراق. وقف الموظف مرحباً فى نشاط وقدم له مقعداً:

ألف.. ألف.. ألف مبروك.. هات حاجة ساقعة هنا ياعبده..

- مش فاهم.. مبروك على إيه؟

على الجايزة يافندم.. الزبون رقم ١٥٠٠٠٠ فى كل محطة سيدخل السحب على جايزة ١٠٠٠٠٠ جنيه، ولكن خمسين منهم مدعوين لقضاء أجازة مع الأسرة فى أى مكان فى العالم على حساب الشركة.. مبروك الأجازة على الأقل.

- على مهلك على شوية.. مش فاهم، يعنى من حقى أنا وأسرتى الحصول على أجازة أنا وأسرتى على حسابكم؟

- طبعا.. فى أى مكان، فى مصر أو فى الخارج.

- وادفع تذاكر السفر..؟

- ولاتدفع ولا مليم، احنا ها ندفع تكاليف السفر والاقامة والاعاشة.

- أنا ومراتى..؟

- وأولادك ووالدتك وحماتك بحد أقصى سبعة أفراد. بالإضافة لدخول حفل الجائزة الكبرى مجاناً.. حيث يجرى السحب بواسطة الكمبيوتر.. واتفضل، أدى بطاقة دخول الحفلة.. سيغنى

فيها راغب علامة وإيهاب توفيق وماجدة الرومى وكاظم الساهر وسميرة سعيد ولطيفة وستقدم الجائزة بنفسها السيدة فاتن حمامة شخصياً.

- كل حاجة مجاناً؟

- طبعا..

- يعنى مش حادفع حاجة؟

- ولامليم..

- طب ليه..؟ بتعملوا كل ده ليه؟

- دعاية.. احنا ميزانية الدعاية عندنا ملايين الدولارات.. تحب نحجز لك فين؟

- ممكن أسبانيا؟

- أى مكان فى العالم.. فندق خمس نجوم وشاطىء خاص.

- خلاص.. احجز لى فى اسبانيا..

- ممكن بطاقتك العائلية من فضلك..

- اتفضل..

الموظف يملأ استمارة أمامه من واقع بيانات البطاقة..

- ألف مبروك.. خلاص.. حجزت لك.

- متشكر

- لو سمحت عشرة جنيه.

- بتوع إيه؟

- جدية الحجز.. ثمن الاستمارة دى، ده مبلغ رمزى للتأكد من جدية الحجز.

– انت خايف أحسن أهرب؟

– لا سمح اللـه.. ده مجرد مبلغ رمـزى.. ثمن الاستمارة.. لأن الاستمارة مش بتاعتنا دى بتاعة شركة السياحة الاسبانية..

– يعني حضرتك حـا تسفـــرنى على طيــارات وتعيشنى فى أوتيـلات أنا وأسرتى وتـدفع عشرات الألـوف من الجنيهات وخـايف لأرجع فى كلامى واسيب كل ده؟!

– استغفر اللـه.. ممكن تغير رأيك وتطلب تروح ايطاليـا مثلاً.. واحنا حاجزين لك فى اسبانيا فتدخلنا فى مشكلة.

– والعشرة جنيه دى هى الى حاتحل المشكلة؟

هنـا بـدأ الاستـاذ محفـوظ يـلاحظ أن عـدد الاستمارات على الترابيزة بالمئات، يبدو أن كل مـن مر على المحطة يملأ استمارة ويدفع عشرة جنيهات ثم يدخل على أسرته فرحاً ومهللاً وراقصاً. حجزت لكم فى أسبانيا اسبوعين.. بعشرة جنيه بس.

– بقى حضرتك مستكتر تدفع عشرة جنيه مقابل كل ده؟.. لازم أى مبلغ جدية حجز. حضرتك عاوز تدفع كام؟

وهنا أخـرج محفوظ من جيبه جنيهـاً واحداً: عـاوز أدفع جنيه واحد ثمن الحاجة الساقعة الى شربتها.. سلام عليكم.

أسرع محفـوظ إلى سيارتـه، أدار المحـرك وخرج من المحطـة، كانت تلاحقه صيحات غاضبـة ومهينة.. انت فاكرنا بننصب عليك..؟ أما عـالم أغبياء صحيح. حايكلفنـا مائة ألف جنيه ومش عـاوز يدفع ثمن علبتين سجاير.. والله ماليك فى الطيب نصيب.. عالم فقر.. سيبك منه ياشيخ.. ده افندى عرّه.. هو ده يعرف يصيف؟!

دخل محفـوظ إلى محطة بنـزين أخرى بعـد عدة كيلـو مترات، لاحظ أن العمال ينظرون له فى ترحيب.. صاح: فُلْ تانك من فضلك.

قال العامل: مبروك يافندم.. حضرتك...

– قاطعه محفوظ: الله.. إيه الى عرفك؟.. هم بلغوكم؟

– بلغونا بإيه يافندم؟

– بلغـوكم إنى خـدت جايـزة التصييف فى اسبـانيـا وايطاليـا والغردقة ومفيض توشكا..

– لأ.. مابلغوناش..

– خلاص.. حـايبلغوكم.. بس دلـوقت أرجوك.. إمـلالى التانك بسرعة.. عشان الحق المركب الى طالعة أسبانيا..

* * *

عشرات القصص من هـذا النـــوع فى عشرات المجـالات بمئـات التفاصيل الغريبة تسمعها فى كل لحظة فما دلالة ذلك؟

وهل وصلت الحوادث إلى الـدرجـة التى تشكل فيهـا ظـاهـرة نستـدل منهـا على حـركـة العقل الجمعى العـام؟ كثيرون وأنـا منهم يعتقدون أن الطريقة الوحيدة لقياس الاتجاه العام للعقل الجمعى هى فى دراسـة الأفعـال الشاذة ومنهـا النصب طبعاً، عنـدما تحدث بشكل متكرر ومتزايد.. إن نظرة سريعـة على صفحة الحوادث كافية للخروج ببعض الملاحظات التى لا أقطع بصحتها.. ولكنها جديرة بالدراسة.

سقوط ملحوظ لملكـة النقد، أو مايسمى بالعقل النـاقـد، وتوقفه عن طـرح الأسئلة، مثـل ذلك النصاب الـذى يجيـد اللهجة الخليجيـة وتعـاقـد تعـاقـدات وهمية مع أطبـاء وعمال ومـدرسين وصيـادلـة

وممرضين وسباكين و.. و.. و.. إلخ وكأنه سفير لدولة. كان الطعم بسيطاً للغاية وغاية في السذاجة. هو يمتلك قرية سياحية في بلد عربي، قرية سياحية كبيرة بها مدارس ومستشفيات وصيدليات.. لا أحد من الضحايا تساءل، مشروع بهذا الحجم، شخص واحد فقط يختار العاملين فيه من كل المهن؟ وهل من المعقول أن يطلب شخص يملك مشروعاً تكلف مئات الملايين بضعة آلاف من المتعاقد؟

المهم أن أخينا النصاب جمع نصف مليون جنيه من الضحايا التعساء.

النصاب يدرك بالغريزة أطماع الضحية أو أحزانها، هو يعرف أن قطاعاً عريضاً من البشر يعاني من انعدام البهجة لأنه لا يملك تكلفتها، مما يترتب عليه نوع من الاجهاد العقلي تتسبب فيه عوامل كثيرة من أهمها إعلانات القرى السياحية والفتيات الفاتنات الجميلات في اعلانات التلفزيون بالاضافة للحمامات الجديدة التي نشك أن هارون الرشيد نفسه تمتع بها، تلك الحمامات التي بلغت من الفخامة درجة تصيبك بالذهول وتسلمك لحالة من التعاسة يستحيل الشفاء منها لسبب بسيط، ستعيش وتموت دون أن تدخل هذا الحمام مرة واحدة، وحتى لو حدثت معجزة ودخلته، كأن تفوز في مسابقة مثلاً، فمن المتوقع أن تتوقف أحشاؤك عن العمل، ستصاب بالامساك حتماً.

حوادث النصب موجودة في كل مكان وزمان، نقصد بذلك النصب المحترف، الذي يعرف صاحبه أنه يعمل نصاباً، وعادة ما يقع في ايدي رجال الأمن بعد عدة جولات، أي أنه لا يمثل خطراً كبيراً على

المجتمع، أما الخطير حقاً فهو روح الهواية في النصب، أي أن النصاب لايدرك أنه نصاب ويمارس (عمله) بوصفه عملاً طبيعياً.. هو يؤمن أن هذا (العمل) لايتعارض مع الأخلاق أو العرف أو القانون، وهذه الظاهرة تنتشر في المراحل التي تسقط فيها قيمة العمل بما يترتب عليه احتقار الحرفة والاحتراف، هنا يتحول أفراد المجتمع ليس إلى منتجين وعاطلين بل إلى نصابين ومنصوب عليهم.. أو يتبادلون الأدوار في كل يوم أو كل ساعة.. تنصب علي الآن فابحث أنا عمن أنصب عليه وهكذا.. لقاء مبالغ بسيطة (جدية الحجز) تصنع أموالاً كثيرة في النهاية.

وتتسع الدائرة وتترسخ الملامح وبذلك نستطيع تفسير ظاهرة المطرب الذي ليس مطربا، والمؤلف الذي ليس مؤلفاً، والكاتب الذي ليس كاتبا، والطبيب الذي ليس طبيباً.. والسباك الذي ليس سباكاً..

وهذا يفسر لك سر التعبير الشهير الذي انتشر هذه الايام.. حاجة إيه.. اللي هيّ..

كان لابد من ظهور هذا المصطلح بعد أن انتشرت كل الأشياء والافعال.. اللي مش هيّ.

***



جزر القمر دويلـة تتكون من ثلاث جزر بجـوار الشاطىء الأفـريقى بـا لمحيط الهندى على شمال السما لا تعـرف لها طـرق مـواصلات جـوية أو بـريـة أو بحريـة. وهى عضو فى الجامعـة العربيـة ليس لأنها دولة عربيـة ولكن لأنها تريد أن تكـون دولة عربية.

ولقـد رحبنا بها وأعطينـاهـا العضـوية ومـا يترتب عليهـا من التزامـات قومية تنفيـذا لخطتنا غير المعلنة والتى نعمل بمـوجبها على تحويل دول العـالم كله إلى دول عـربيـة فنضمن بذلك ألا يكـون على الأرض سوانا. كانت المشكلة الأساسية فى دخولها الجامعة العربية أنه لا أحد هناك يتكلم اللغة العربية. وتـم حل هذه المشكلة عندما اكتشفنا أن رئيسها خـريج جامعـة الأزهر ويجيـد اللغة العربيـة هو وسـائقه

وطباخه وخمسة مواطنين من أحفاد ابن بطوطة وثلاثة من أحفاد السندباد البحرى الذى يقال إنه زارها فى واحدة من رحلاته وأمضى بها ساعتين.

ولعل الدافع الأساسى فى قبولها عضوا بالجامعة هو ما يتردد عن أنها غنية بمادة «الشحتنوف» المشعة وهى مادة مطلوبة فى صناعة الدواء حيث أنها العلاج الوحيد لمرض «الحنتليف» المنتشر فى أفريقيا وآسيا، غير أن بعض المصادر تؤكد أن خام الشحتنوف لم تعد له أهميته القديمة بعد التطور المذهل فى صناعة زيت حبة البركة، وأن جزر القمر فى حقيقة الأمر تتميز فقط بنوع ممتاز من الفسيخ والبطارخ، وهذا بالطبع لا يكفى لقبولها عضوا فى مجلس الجامعة العربية بدليل أن بلادا أخرى متفوقة أيضا فى صناعة الفسيخ والبطارخ ولم تقبل عضويتها مثل دمياط ونبروه.

والواقع أن السبب الأساسى فى قبولها تم فى اطار الصراع الدائم بين الشرق والغرب، هى جولة مهمة كسبناها من الغرب، فهذه الجزر كانت مستعمرة فرنسية لذلك كان لابد من حرمان فرنسا منها والقضاء على الثقافة الفرنسية والغربية فيها واستعادة وجهها العربى القمرى الأصيل وهذا ما حدث بالفعل، اختفى الكرواسان الفرنسى وشوربة البصل وظهرت الأطعمة الشرقية الأصيلة، شوربة الكوارع ولحمة الرأس والكبسة وطواجن البامية والكوسة.

إننا فى معركتنا مع الغرب متنبهون تماما لكل حيله التخريبية فى فرض نمط حياته علينا، همبورجر، كنتاكى، سوسيس، ملابس اللأينز، لذلك كان لابد من رفع شعار الكبسة فى مواجهة الاسباجتى، المبار فى مواجهة السوسيس، الفتة فى مواجهة اللازانيا، الجلابية والسروال فى مواجهة اللأينز.. وإحنا وراك وراك ياغرب والزمن طويل.

وفجأة حدث انقلاب عسكرى هناك، عسكرى ليس بمعنى أن القوات العسكرية المسلحة استولت على الحكم، لا.. انقلاب نفر عسكرى، يعنى واحد عسكرى من قدامى العساكر المرتزقة، عجوز فى السبعين من عمره، دخل على رئيس الدولة «٨٠ سنة» واحتجزه رهينة وحكم البلاد لمدة ٦ أيام.. ولم تتحرك الجامعة العربية، لم تجتمع، لم تتخذ قرارا من أى نوع لاستعادة هذا البلد العربى من براثن حكم الراجل العسكرى الغاشم.

حتى نزار قبانى لم يكتب عنها قصيدة واحدة بالرغم من اهتمامه المعروف بالقمر، فقد كان منشغلا بكتابة قصيدة أخرى فاجعة عن ضياع الأندلس.

الواقع أن الأندلس مازالت فى مكانها، كل ما حدث هو أن العرب خرجوا منها من حوالى خمسمائة عام، وانشغلوا بالبكاء عليها طوال هذا الوقت، أما الأمر المؤكد بقراءة معطيات هذه اللحظة الحاضرة «وهذا حديث جاد» فهى أن العرب سيخرجون من باريس ومن لندن ومن كوبنهاجن ومن بقية العواصم الأوربية، والله العظيم هذا هو ما يفكر فيه المسئول الغربى الآن.

غدا سنسمع من يقول: أيها السادة، لقد خصصت لكم قطعة أرض واحدة وحيدة هى الأرض العربية، لا تخرجوا منها، استمتعوا فيها بقيمكم وتراثكم وعظمتكم ما دامت الثقافة السائدة فى شوارعكم

وحواريكم ومنابركم وإعلامكم هى معـاداة الغرب واحتقاره وكراهيته لذلك من الأفضل لنا ولكم أن تبتعدوا عنـا وأن نبتعد عنكم.. لقد فشلنا حتى بالرشاوى فى اقناعكم أننا ننتمى لجنس بشرى واحد وأننا جميعا مسئولون عن حماية الحياة فى هذا الكوكب لا مفر من اتخاذ كل الطرق لحمايـة انفسنـا منكم.. خليكم هنـا.. أنتم أحـرار فى اختيـار اللحظـة التاريخية التى تعيشون فيها.. اتفضلـوا حولوا بلادكم لمقبرة عظمى.. احنا مالنا احنا.

نعود لما حدث فى جزُر القمر.

تحركت القـوات الفرنسيـة لانقاذ الجزُر العـربية من انقـلاب الراجل العسكرى الغاشم وألقت القبض عليه وأعادت الحاكم الشرعى إلى الحكم بشرط الا يحكم. وبذلك تأكدت سيادة الغرب مرة أخرى على جزء عزيز من الأرض العربية.

مـرة أخرى عـاد الكرواسـان والرغيف الفـرنساوى والقهـوة الفرنسيـة ونبيذ بوردو، مرة أخـرى يضيع بلد عربى بعـد أن ضاعت الأندلـس، ها نحن فى غفلـة من الزمن نخسر جـزُر القمر، مـرة أخرى تنتصر الاسباجتـى على الكبسة وتضيع إلى الأبـد فتة الكـوارع بالخل والتوم، مرة أخرى ترتدى الناس ملابس اللأينز ويتخلون عن ملابس أجدادهم.. مرة أخرى ينتصر الغرب علينا.

قلبى معك أيها الشعب العـــربى القمـــرى الأبى الأصيل، قلبى معكم يـا أحفـاد ابن بطـوطة والسنـدبـاد البحـرى، وإلى أن يستيقظ الحكام والشعراء العرب من سباتهم العميـق لا مفر من كتابة قصيدة أعـرف مقدمـا أنها مكســورة الأبيات، نعم، فقلبى كسير، كيف يكـون الشعر سليماً وقلبى كسير؟!

سمعت الخبر؟.. راحت جزُر القمر.
هل أنتم بشر.. هل أنتم بشر؟
كيف تركتم جزُر االقمر؟
هل بحفنة جزَر؟
إذا كان الجزَر بيقوى النظر.
فلماذا تخليتم عن جزُر القمر..
هل أنتم بشر؟
تمشون مثل البقر وتصرخون مثل الغجر.
وفى النهاية تجلسون مع وهبية تحت الشجر؟..
آه ياقمر.. آه ياجزَر.. آه يابقر.
هل أنتم بشر؟
أم أنكم بقر..؟
والله إنتم جزر..
لماذا تخليتم عن جزُر القمر؟
وهل عندما يضربكم الغرب تبتسمون وتقولون..
أؤمر ياقمر؟
أما صحيح عالم فيها كل العبر
هل أنتم بشر؟
أم أنكم جزَر.
والله أنتم جزَر.
آه ياقلوب قدت من حجر.

ياعباءة من غير وبر.
يا بشر عديم النظر..
والله لنا سايبكم.
ورايح المجر.
هل أنتم بشر.. أم أنتم جزَر؟
بل أنتم جزَر..
أنتم جزَر.

***



يفقد بعض الناس أهميتهم لفرط إحساسهم الزائف بالأهمية .عند ذلك يطمع فيهم وفى أرضهم الآخرون الباحثون عن أهمية زائفة.. لعل تلك المقولة التى استطعنا الوصول إليها ونحن نقترب من الستين تلخص بجلاء وتشرح واقعة استيلاء أريتريا على جزيرة حنيش الكبرى فاتحة بذلك ملفاً جديدا لمعركة أبدية فى المنطقة تبعدها عن الاستقرار عدة مئات أخرى من السنين.

لم يسمع أحد من قبل عن هذه الجزيرة التى اتضح أنها ثلاث جزر قريبة من باب المندب - المنفذ الإستيراتيجى على البحر الأحمر - وهى تقع فى منتصف المسافة بين أريتريا الأفريقية واليمن العربية الأسيوية.. هذا ماقاله المعلق فى إذاعة لندن.. بينما الخريطة المنشورة

فى جرائد عربية توضح أنها أكثر قربا من اليمن وبذلك تصبح يمنية، وتصبح أريتريا معتدية آثمة. فى هذه الحالة وفى منطقة أكثر تحضرا كان من الممكن أن تحسم هذه القضية بمحكمة العدل الدولية أو بالتحكيم، أو بالتفاوض المباشر أو بالزفت المسيّح.

ولكن لأن دول المنطقة المستقلة حديثا نصف استقلال، والتى لم تكن موجودة من قبل، تريد أن توجد على خريطة العالم السياسية.. لذلك كان لابد لها أن تقوم بعمل كارثة تلفت أنظار الجميع، فشربت قواتها البحرية حليب السباع واندفعت تحتل جزيرة حنيش الكبرى فى معركة غير متكافئة على ما يبدو، حيث أثبت حليب السباع أن مفعوله أقوى من حليب الماعز.

هناك بالطبع طرق كثيرة للتواجد والتأثير فى هذا العالم والحصول على احترامه وتعاطفه، من بينها أن تقدم إبداعا جديدا فى الحكم أو مخرجا عظيما أو مؤلفا خالداً أو موسيقيا عبقريا.. أو.. أو.. أو.. ولكن الحكام الذين تربوا على حليب السباع عاجزون عن ذلك.

تقول معلومات غير مؤكدة – غير أنه يمكن الوثوق بها كبقية الأكاذيب – إن جزيرة حنيش كانت قبل عصر البترول من أهم المراكز التجارية الغنية فى العالم، وكانت بورصتا نيويورك وطوكيو تعملان لها ألف حساب، فقد كانت مركزا عالميا لتجارة الحنشان وهى ثعابين السمك الشهية.

ومن الطريف أن الجزيرة اكتسبت اسمها ليس من صيد الحنشان كما يتبادر إلى الذهن، ولكن من الرحالة العربى العظيم القديم الحنش بن أبى حنَشة الحنوشي الذى زار السند والهند وبلاد

تركب الماعز الجبلى، والذى كان فقيها كبيرا وعالما لغويا وقائدا عسكريا فذا وملحنا عظيما، غير أن كل تراثه غرق فى البحر.. هو الذى أغرقه بنفسه فى نوبة اكتئاب.. غير أن خصومه يتهمونه بأنه لم يبرح الجزيرة طول عمره، وأن كل الوقائع التى ذكرها هى من وحى الخيال، وأن مصدرها الحقيقى هو تجار الحنشان الذين كانوا يترددون على الجزيرة فى العصور الوسطى.. عموما لا يجب أن ننشغل بهذه القضية، لأن الكتاب نفسه غير موجود ولا يوجد ما يشير إلى أنه وجد أصلا.

ثم فقدت الجزيرة أهميتها لأسباب غامضة فى بداية القرن العشرين.. اختفت ثعابين السمك فجأة من المنطقة المحيطة بها ،ربما بسبب كثرة عدد ناقلات البترول العملاقة التى تمر بالمكان فتزعج بمواتيرها الجبارة الحنشان، أو لعل السبب هو ظهور صناعة تعبئة علب التونة والسردين، أو جشع التجار الذين أوصلوها لأسعار خرافية لا يقدر عليها المستهلك البسيط، وعلى أى الأحوال لم تفقد الجزيرة أهميتها الإستراتيجية من حيث أن المسيطر عليها يستطيع التحكم فى جنوب البحر الأحمر بغض النظر عن الهدف من هذا التحكم..

س: ماهو الهدف من استيلاء أريتريا على جزيرة حنيش الكبرى؟

ج: كل دولة مستقلة حديثا لابد لها من معركة وطنية قومية تتحول بها البلد كلها إلى معسكر حربى فى حالة تأهب دائم للدفاع عن قطعة عزيزة من أرض الوطن ضد «الأعداء».. وبذلك ينشغل الجنرالات

عن التفكير فى قلب حكوماتهم، ويجد الحكام ومؤلفو الأغانى عملا ينقذهم من الجهد الشاق اللازم لإطعام البشر.. أما رجال الدبلوماسية فلن ينزلوا من طائرة إلا ليركبوا طائرة أخرى متنقلين بين عواصم العالم.. لابد من السفر إلى كل أرجاء المعمورة للدفاع عن قضية حنيش الكبرى ،هى مرحلة تاريخية من تاريخ شعوب العالم الثالث تسمى المرحلة الحنيشية، وسيظهر فى دفاتر المواليد اسم حنيش للذكر وحنيشة للأنثى، ويُدلل الناس بعضهم البعض بلفظى.. حنوش.. وحنوشتى.. وعلى اللافتات ستقرأ فى كل مكان مركز الحنانيش لتجارة الياميش.. وتبدأ بعض النقابات حملاتها لجمع التبرعات لمساعدة ضحايا حنيش.. وتدور المطابع ليظهر كتاب «لايحلوا العيش بغير حنيش» وتظهر أغانٍ كثيرة لعل أهمها هى أغنية «تجيش نعيش فى جزيرة حنيش»؟!!

وتبدأ الوفود والقمم والمساعى.. اطلع يا أفورقى من حنيش.. نعم؟.. أطلع منين ياخويا أنت وهو؟! حنيش أرض إريترية.. كذاب فى أصل وشك.. حنيش أرض عربية يمنية.. بأمارة إيه ياخويا؟.. كانت تحت الحكم العثمانى.. خلاص.. خلاص بيجوا الأتراك يتكلموا معايا.. أنت مالك أنت؟ باقولك اطلع يا أفورقى.. تعال طلعنى.. أنت بتشخط ليه؟.. اتكلم بالذوق.. مش طالع.. اطلع يا أفورقى بالذوق أحسن لك.. مش طالع وأعلى ما فى خيلك اركبه.. كده؟ طب خد.. أى.. خد أى.. إلحقينى يادول ياعربية.. إلحقينى يا أفريقيا.. ضبط النفس ياجماعة.. هو اللى ضرب الأول.. لأ.. هو اللى ضرب الأول..

ترتفع أسعار السلع بشكل جنونى، ينخفض سعر العملة فى

أريتريا واليمن بشكل سودانى.. يثرى تجار البوية الزرقاء لزوم دهان النوافذ لمواجهة الغارات، تهرول وفود شراء السلاح من البلدين لشراء المزيد من الزوارق البحرية والطائرات المقاتلة والزوارق المضادة للزوارق والطائرات المضادة للطائرات ولامضادات حيوية.

إنها الحرب، لاصوت يعلو، لا مدرسة تعلو، لامستشفى يعلو، لا تجارة.. لا اقتصاد.. لاحياة.. لقد وصل الناس إلى سر الحياة والهدف منها.. إنه الموت من أجل قضية كبرى، نموت نحن وتعيش حنيش.. يموت أفراد الشعب وليس الحكام.. وبعد عدة مليارات تنفق من أجل استرداد حنيش من جانب أو الاحتفاظ بها من الجانب الآخر، يتم اقتراض عدة مليارات أخرى من بنوك العالم لشراء سلاح متطور.. وفى النهاية – النهاية البعيدة – تكتشف اليمن أنها غير قادرة على استرداد حنيش الكبرى وتكتشف أريتريا أنها غير قادرة على الاحتفاظ بها.. فيقبل الطرفان التفاوض على مضض.

خلاص ياجماعة.. لاغالب ولامغلوب.. بعد إيه؟.. بعد اللى عملته أريتريا فىَّ؟.. دم شهدائى فى رقبتك.. ودم شهدائى فى رقبتك.. خلاص ياجماعة.. خلاص.. عشان تعرف بس إننا الجانب الأكرم. خد حنيش الصغرى وأنا حنيش التانية.. ياسلام..؟.. اللى هى الكبرى.. يعنى إنت تاخد الكبرى وأنا اخد الصغرى؟.. لأ.. مش موافق.. لن أخون دم شهدائى.. وأنا كمان لن أخون دم شهدائى.. علما بأن الدم الأفريقى أغلى من الدم بتاعك.. اخرس.. طب خد.. أى.. ياجماعة.. فيه قرار بإيقاف إطلاق النار.. ضبط النفس ياجماعة.. أعمل له إيه؟.. عاوز ياخد الكبرى ويدينى الصغرى.. ولا حتاخد الصغرى كمان.. هه.

ياجماعة من أين أتيتم بكلمة كبرى؟ لاتوجد مراجع تشير لهذا الاسم.. الصيادين بيسموها كده.. هى السياسة بيعملها الصيادين ياجماعة؟..

طب اسمعوا.. لابد من إعادة صياغة أسماء هذه الجزر.. كل جزيرة سيكون اسمها حنيش الكبرى الصغرى.. ستأخذ أنت حنيش الكبرى الصغرى.. بينما آخذ أنا حنيش الصغرى الكبرى.. يعنى إنت تاخد الصغرى الكبرى وهو ياخد الكبرى الصغرى.. وبذلك يرتاح الرأى العام فى كلا البلدين إلى أنه حصل على النصر.. خلاص .. آخد أنا الكبرى الصغرى وياخد هو الصغرى الكبرى.. لأ أنت اللى تاخد الصغرى الكبرى وأنا اللى أخد الكبرى الصغرى.. لا أنت ولا هو.. إحنا اللى هناخدها، أوربا وأمريكا واليابان.. نعم؟ حنشتريها منكم.. لأ.. نأجرها.. لأ.. نحط فيها قوات سلام.. لأ.. طب هاتوا الفلوس اللى عليكم.. لأ.. طب خد أنت وهو.. أى.. أى... أى.. إلحقينا ياروسيا.. مين اللى بينده؟.. مين؟.. الصوت بعيد.. زعق شوية مش سامعة.. بتقول إيه.. حاتروحوا فى داهية؟.. ماتروحوا.. سيبونى فى حالى..

***

هكذا تكلم عم ربه التائه

هو بطل أحدث أعمال نجيب محفوظ «أصداء السيرة الذاتية» تصورت فى البداية إنه من وحى خيال الكاتب العظيم، غير أنه أكد لى أنه آدمى من دم ولحم وأنه يعيش بيننا وماذا عن مهنته؟

– مهنته التوهان كما يدل على ذلك اسمه، هو يكره السير فى الشوارع المعروفة ويغير دائما محل إقامته، لا يحمل ساعة يد، لن تجد نتيجة حائط معلقة على جدران بيته، يجيد معرفة ما حدث من مئات السنين ويكره معرفة ما يحدث الآن، لدرجة أنه يذهب إلى بائع الصحف ليشترى منه الأعداد القديمة ويدفع فيها ضعف ثمنها، تصورنا فى البداية أنه لا يعرف لانعدام مصادر المعرفة عنده، ولكننا اكتشفنا أنه يرفض عامدا معرفة ما يحدث لأن ذلك يحرمه من التوهان.

– هل هو غني؟

– كان غنياً من أصحاب الأطيان والعقارات والأموال، والآن ينوء كاهله بالديون.. المدهش أنه يجد دائما من ينفق عليه ويساعده على الاستمرار فى التوهان.

– كيف فقد ثروته؟

– ثروته أتت بها الرياح فذهبت بها الزوابع.. فى الغالب هو لم يصنع هذه الثروة، هبطت عليه من السماء، فوجىء أنه غني فاستولى عليه الغضب وقرر أن يكون فقيرا، فبذل فى سبيل هذه الغاية كل ما يملك من جهد وحيلة، وأخيرا نجح فى ذلك بعد نضال استمر سنوات طويلة، أخيراً تحقق حلمه وأصبح فقيراً.. هو الآن يمارس عادة السير فى شوارع العالم صائحاً بصوت يمزق القلوب: أنا تايه.. أنا تايه وفقير.

– هل تقصد أنه يبحث عمن ينقذه من التوهان والفقر؟

– لا.. هو فقط يستمتع بهذه الصيحات.. ولعله فى رحلة بحث عمن يرشده إلى المزيد من الضياع والتوهان، ولعله أيضا يبحث عمن يرشده لاتباع سلوك يجعله أكثر فقرا.

– ياساتر..

– ليس هذا فقط، لقد كان قويا جدا فيما مضى فساءه ذلك فأفرط فى الطعام والشراب والملذات الحسية والكسل إلى أن تحقق له ما يريد فساءت صحته وأصبح ضعيفا لا يقوى على شيء، ولكن بقيت له من لذات الحياة لذة واحدة هى إطلاق صيحات الضعف. أنا تايه.. أنا فقير.. أنا ضعيف.. أنا ضعيف قوى.. أنا غلبان.. أفقرونى الأوغاد.. أضعفونى ولاد الـ ..... ياه، ده دا أنا كنت كويس قوى..

وكان أيضا حسن الصورة جميل التقاطيع حلو القسمات فضايقه ذلك كثيرا وقرر أن يكون قبيح الوجه فتم له ما أراد.

– كيف..؟ هل يستطيع الإنسان أن يكون قبيحاً؟

– نعم، بنفس الطريقة التى يكون بها جميلا.. أى أن يكون جميلا فيرى الوجود جميلا.. فى هذه الحالة سينعكس الوجود الجميل على وجهه وسلوكه جمالا.. ويستطيع أيضا أن يكون قبيحا بأن يردد الألفاظ القبيحة ويعتنق الأفكار القبيحة، ويأتى من الأفعال بكل ما هو قبيح.. عند ذلك يتحول لشخص قبيح ينفر منه الناس.

– لاتظلم الرجل، أليس من المحتمل أنه ضحية لظروف أرغمته على ذلك؟

– هذا ما تصورته فى البداية، ولكن بدراسة حالته جيدا أيقنت أنه «يريد» كل ذلك، لاتصدق أن شخصا يتطوع بالكذب لأن هناك من أرغمه على ذلك، هو يكذب لأنه كذاب، ويفخر بقوة أجداده لأن الضعف طبيعته، ومزّور لأنه يعشق التزوير، ويشوه الآخرين لإحساسه بأنهم أفضل منه، هناك متعة خاصة فى الصراخ والعويل ولطم الخدود لا تعرفها سوى النائحات الندابات عاشقات اللطم فى الجنازات.

من الغريب أنه أضاع جزءاً كبيراً من ثروته على المحاكم، فهو يغّير ويعدل ويبدل فى اسمه كل عدة شهور، وتغيير الاسم ليس بالأمر السهل، ففى كل مرة يضيف فيها لقبا جديدا إلى اسمه، لابد أن يرفع قضية جديدة مما يستلزم مصاريف ورسوما وأتعاب محاماه ووقتا ضائعا. كان فى البداية تائها فقط، ثم أضاف عدة ألقاب جديدة كبدته

خسائر فادحة، اسمه الرباعى الآن هو التائه الفقير الضعيف الضائع، ولكنه بسبيله الآن لرفع قضية جديدة لجعل اسمه عشاريا، أى من عشرة ألقاب، وليس أربعة كما يحتم القانون.

– ياله من مسكين.

– من هو المسكين؟ هو الآن فى أفضل حالاته، قلت لك إنه يحب ذلك.

– عموما لا بأس بشخص واحد أو حتى عدة أشخاص بهذه الحالة.

– بالعكس.. الأمر أصبح الآن خطيرا جدا. مريدوه الآن بالآلاف بعد أن بدأ يعمل بالكتابة فى الصحف.. اقرأ الصحف الآن من كل الاتجاهات.. ابدأ بالمفكر العظيم نزار قبانى.. اعجن المقالات فى بعضها البعض، أدخلها كمبيوتر.. ستظهر على الشاشة مفردات تدور كلها حول: إحنا غلابة.. إحنا يتامى.. إحنا مهزومين.. إحنا متنيلين.. إحنا ولاد الـ..... إحنا عجزة.. إحنا فاشلين.. إحنا مانستحقش الحياة.. يلعن روح أبونا..

– لقد شوقتنى ياسيدى لرؤيته والتعرف إلى أفكاره عن قرب، يخيل إلىّ أن الرجل يستنهض همم الناس.. لعله تصور أنه بموقفه هذا سيدفع الناس إلى التخلص من ضعفهم والسير فى طريق القوة، وأن اتهامهم بالكسل والعجز قد يدفعهم إلى النشاط، وأن الإحساس بالعار والضعة سيدفعهم لاتخاذ موقف يعيد لهم الاعتبار ويجلب لهم الاحترام.

– قد يكون ذلك صحيحا إذا قيل بنغمة أخرى وفى إطار

مختلف.. أما هذا التجريح وجلد الذات الذى يتم الآن على نطاق واسع، فهو يشعر المرء أن وراءه إحساسا باللذة أو على الأقل باليأس المريح.. هم يغلقون أمام البشر أى باب للأمل.. ومع ذلك روح قابله.

تمكنت بعد جهد شديد من معرفة مكانه، كان جالسا على الرصيف وحوله مجموعه من أتباعه، نظروا لى فى شك وريبة، صاح أحدهم: قف.. من أنت؟

– واحد غلبان.

– كلمة السر؟

– الكسل العقلى اللذيذ، الضعف الممتع، احتقار اللذات، رعاية الجهل.

– أهلا وسهلا، تقدم واجلس بين إخوانك.

تقدمت وجلست بينهم، تكلم عبد ربه والدموع تسيل على وجنتيه: أين العرب؟ أين السلام؟ أين الكبرياء؟ أين الهمة؟ أين الشرف؟ أين الضمائر.. كل حاجة راحت.

صاح واحد من المريدين بتعاسة: والأندلس كمان راحت يا مولانا.

من الواضح أن عبد ربّه لم يستمع لنشرات الأخبار منذ ٥٠٠ سنة، لأنه صاح فى دهشة: والأندلس كمان؟.. طب مش كان حد يبلغنى يا اخوانا..

قالها وأجهش فى البكاء، تجرأت وقلت له: ياشيخى العزيز.. ما رأيك فى أن نفعل شيئا.. أى شىء.. أن نزرع هذا الرصيف مثلا.

رد علىّ بسخرية: وهل سيسمح لك أحد بالزراعة ياجاهل؟

- أو نصنع فيلما جيدا، أو أغنية جميلة تأسر قلوب البشر.

- ولماذا نبذل جهدا يؤدى إلى نتيجة فاشلة؟!.. لن نتمكن من ذلك لأن الغرب القذر سيقف لنا بالمرصاد.

- لماذا؟

- لأنه شرير.

- أوافق على أنه شرير.. ولكن شعوبا كثيرة أفلتت من شره، ربنا فتح عليها.. ماتيجى نفلت إحنا كمان.

- الجدع ده مدسوس علينا.. عاوزنا نشتغل.

- ده شرير، عاوزنا نفهم.

- مش كده وبس.. ده عاوز يحرمنا من قعدتنا الحلوة دى..

وهنا صاح أحدهم فى تهديد: قوم يا جدع أنت.. ابعد عننا.

فنهضت من مكانى وابتعدت عنهم.. أمر خطير للغاية أن تحرم التعساء من لذة الإحساس بالتعاسة.

***



إدمان

أصيب صديقى بالإدمان.. بأخطر أنواعه.. إدمان التخلف. كان محتملا ولا خطر منه عندما كان متخلفا فقط، ولكنه عندما أدمن تحول إلى كارثة أفظع، غير أننا قررنا أنا ومجموعة من الأصدقاء أن نعالجه مهما كلفنا الأمر.

ذهبنا إلى أخصائى التخلف المعروف الدكتور خلف الله خلف خلاف فكشف عليه وفحصه بدقة ثم قال لنا: الحالة متأخرة جدا، ومع ذلك الموقف لا يدعو لليأس.. علاجه ممكن بشرط أن يتحمل جسمه أعراض الانسحاب.. إن خطورة الإدمان تكمن فى أن الجسم يعتمد اعتمادا طبيعيا على المخدر، وحرمانه منه يؤدى إلى آلام فظيعة، وعلى المريض من أجل الشفاء أن يتحملها. هذا بالنسبة لإدمان المخدرات المعروفة الطبيعية أو المخلقة. أما أعراض الانسحاب عندما تحرم المتخلف من جرعة التخلف فهى من أفظع الالام لأنها تنبع من

الجسم والعقل والعواطف والانفعالات والغرائز أيضا.. سيشعر بآلام فى جسمه وكأن وابور زلط مرّ فوقه. أما عواطفه وانفعالاته فستؤله وكأنه عنتر حرموه من ألف عبلة.

أما عقله فسيكف عن العمل ويتحول إلى بالوظة، وكأنه مسئول أقيل من منصبه.. لا توجد آلام فوق الأرض تفوق أعراض الانسحاب عند مدمن التخلف ومع ذلك سأقبل التحدى وأعالجه.

- نحن لا نطمع فى الكثير يادكتور.. هل من الممكن أن يعود متخلفا فقط

- محتمل.. ولكن خطورة التخلف مهما كانت درجته خفيفه أنه يؤدى بالحتم إلى الإدمان.. حالة التخلف هى نفسها حالة العطشان الذى يشرب ماء مالحا.. لا يرتوى أبدا.

- هل ستبدأ معه يادكتور بإعطائه جرعات خفيفه من التخلف غير المركز.

- هذا هو الخطأ الشائع الذى يقع فيه بعض زملائى الأطباء.. هذا العلاج وارد فيما يتعلق بالمخدرات الأخرى، أما فى حالة إدمان التخلف فهو علاج خطر للغاية.. لأنه يحول أهل المريض أنفسهم إلى متخلفين ثم مدمنين.. وهذا هو غاية ما يتمناه أى متخلف لمن حوله.. لاشك أن مدمن الأفيون سيكون أكثر ارتياحا وابتهاجا عندما تتحول عشيرته كلها إلى أفيونجية.. كذلك المتخلف.

- زدنا علما وفهما يادكتور بارك الله فيك.. ماهو الخطر الناشىء من علاج إدمان التخلف بجرعات خفيفة من التخلف.. أليس يقال: «وداونى بالتى كانت هى الداء»

- تعالوا نحلل ما تقولون.. لنفرض أننا سنعالج التخلف بجرعات من التخلف، وهو ما نراه فى حد ذاته تخلفا، أليس من المتحم أن ترسلوا شخصا إلى أماكن بيع التخلف لشراء جرعات منه؟

- نعم..

- هذا المكلف بالشراء، أليس مطلوبا منه معرفة أنواع التخلف والتمييز بينها، يعنى سيزداد معرفة به، وبالتالى سيصبح هو نفسه متخلفا.. إن أنواع المخدرات الأخرى من السهل التحكم فى كميتها ونوعيتها وحجمها.. حقن.. أقراص.. شمّات.. إلخ.. أما جرعات التخلف - خفيفة كانت أو قوية - فلابد أن تكون على هيئة كتب وأنواع من الفن والصحافة والأقوال والأفعال والسياسات، وأنواع من التعليم.. أليس كذلك؟

- نعم.. نعم.. هى كذلك.

- يعنى فى النهاية ستنشغلون بالتخلف.. سيملأ وقتكم وحياتكم.. هذا بالإضافة إلى أن التخلف لايقاومه سوى الأدمغة القوية والأرواح العالية.. وعدد أولئك وهؤلاء على الأرض قليل، بينما بقعة التخلف الصغيرة تنتفش بسرعة البرق، وتتسع وتستطيل وتنتشر وتتوغل وتتوغل وتتوغل.. فى المدن والقرى والنجوع والشقوق.. هو له خاصية النار عندما تنتشر فى الهشيم.. أما مداعبة التخلف أو معابثته أو المزاح معه أو محاولة إيجاد مساحة مشتركة للتعايش السلمى معه فهى ليست أكثر من تخلف سيسحقه التاريخ.

- لحظة يادكتور.. ألا يتوقف التاريخ أحيانا فى بقعة على الأرض ينام فيها فى أحضان التخلف ويغنى ويرقص له؟

– نعم.. ولكن انظر إلى آلياته.. هو أحيانا يعود للوراء عدة خطوات، ولكنه لا يواصل التقهقر والانسحاب إلى الوراء إلى الأبد.. بمعنى أن البشر لن يسكنوا الكهوف مرة أخرى.. لن يأكلوا اللحم نيئا ولن يعودوا لاستخدام السهام والرماح.. فجأة ستجد التاريخ يقفز قفزة واسعة إلى الأمام مواصلا طريقه في اتجاه الحرية والكرامة الإنسانية.. لا تظن أن التاريخ شخص ساذج أو طيب القلب.. هو خبيث جدا، بل هو أحيانا في خبث الشياطين. يخدعك بأن يصور لك أنه لا يوجد تاريخ ولايحزنون.. وأن الحرية والعدل والكرامة والنبل والشجاعة والصدق مع النفس كلها أشياء لا وجود لها، وأن قاعدة الحياة الأساسية هي سبيكة مكونة من الأكاذيب والنفاق والجبن والتلاعب واللؤم، فتصدقه وتتحول في النهاية إلى صدام أو بشير مثلا أو غيرهما من حكام العواصم المعادية للحرية، وفجأة تتفتح عليك أبواب الجحيم..

تحضرني هنا مقولة لمعاوية بن أبي سفيان «من خدعك فانخدعت له فقد خدعته» هذه هي المسألة ببساطة.. هؤلاء الناس يخدعون التاريخ فيضطرونه لأن يخدعهم، هنا يلعب التاريخ دور المطرب والمونولوجست وقائد الأوركسترا.. الله.. ده انتم حلوين قوي.. ده أنتم أذكياء جدا.. ده أنتم أقويا جدا.. العالم كله يعيش في واد وأنتم تعيشون في واد آخر.. أنتم أفضل من بقية البشر.. أنتم أعظم من بقية خلق الله.. ياه.. ده أنتم حاجة ما حصلتش، وبذلك يمتلئون بأوهام القوة وخرافاتها فيفقدون قوتهم لأن القوة تصنعها الاستجابة للتحدي والإجابة الصحيحة على أسئلة العصر والاشتراك

الجدي في حل مشاكل البشر.. وبعد أن يطمئن التاريخ إلى أنهم أصبحوا ضعفاء تماما يوجه إليهم ضربة ساحقة ماحقة لا أحد قادر على التنبؤ بمصدرها أو قوتها، ومن الطريف أنه يلجأ لضرب المتخلفين بمن هم أكثر منهم تخلفا..

– وكيف كان ذلك يادكتور؟

– أقول لك: قد تتخذ قرارا بمسايرة التخلف فتفتتح عيادة لعلاج جروح البشر بالتراب.. بعد لحظات يظهر لك منافس يعالج نفس الجروح بالوحل، أي التراب المعجون بماء الورد فتضطر إلى المزايدة عليه بإثبات أنك الأكثر تخلفا فتبيع الوحل في صيدلياتك بعد أن تضيف إليه الزعتر والقرفة، عندها يفاجئك بنوع جديد هو الوحل بالصلصة.. فترد عليه بعلاج جديد هو الوحل بالمايونيز.

– آه.. في هذه الحالة سأنتصر عليه.. لا أحد قادر على منافسة المايونيز خصوصا إذا أضفت إلية المسطردة..

– على العكس من ذلك ستكون هزيمتك محققة.. سيرد عليك بحملة إعلامية يقول فيها: إن المايونيز ليس من تراث المنطقة، وأن الغرب اخترعه للقضاء على الطرشي العظيم، و إن استخدام المايونيز ليس أكثر من مؤامرة إمبريالية لحرمان المنطقة من هويتها، بدليل أن المايونيز لا يصلح مع الفتة ، وأن الكباب عدو للمسطردة..

في هذا المجال سيظهر معتدلون ومتشددون، الأخيرون سيرفضون المايونيز رفضا قاطعا، والمعتدلون سيقبلون به في أضيق الحدود، وبشرط أن يستخدم في شهر مايو فقط، ودليلهم على ذلك هو الاسم نفسه «مايو.. نيز» .. هذا لا يمنع بالطبع أنك ستجد باحثين

يثبتون أن المايونيز أصله عربى أو فرعونى أو فينيقى، وليس اختراعا غربيا، وقد ينسبون «المسطردة» إلى العالم التركستانى الجليل «مسطار».. وأصل الحكاية أن واحدا من تلامذته – وكان نظره ضعيفا – شاهد شخصا يمر من بعيد. فسأل من حوله وكانوا من الأعاجم: مسطار.. ده يا إخوانى؟

فأجابوه: نعم، ده مسطار.. أو مسطارده.

حدث بعد ذلك تقصير للمد بالألف، كما هو الحال فى نطق الأعاجم، فأصبحت تنطق «مسطردة» ودليلهم على ذلك هو أن الكلمة فى الفرنسية مختلفة تماما، فهى موتار، وبذلك يكون أصلها عربيا. ولكن الأمور ستتقعد عندما ينشر أحد الكتاب وثيقة سرية من ملفات الكونجرس (وثيقة ١٧٥ ن. ص. ب) وفيها يثبت أن الرئيس روزفلت قال لنابليون بونابرت على ظهر السفينة ماريانا يوم الخميس ظهرا فى يونيو ١٩٤٢: مدافعك تقتل البشر ولاتقضى على الهوية.. اهجم عليهم بالهمبورجر، سيطر عليهم بالمايونيز.. أذقهم طعم المسطردة.

وهكذا.. حلقة جهنمية خبيثة من التخلف والتخلف المضاد، لا تنتهى إلا بظهور عيادة جديدة تعلن فى شجاعة أنها تعالج الجروح بالمضادات الحيوية.. وأن كل أنواع الوحل خطر على المصابين..

***



هل نحن نمر بالزمن أم هو الذى يمر بنا؟

الواقع أنه لايجب أن يمر أحدنا على الآخر أو بالآخر، فاللحظة الحاضرة لا تتوقف حتما بحكم دوران الأرض لكى نمر بها. وإذا توقفنا نحن – سامحين– للحظة أن تعبرنا .. فهذه هى الكارثة بعينها، لأننا فى هذه الحال سنبقى خارج الزمن، عندها تعاقبنا الحياة وتنزلنا درجات عديدة على سلم البشرية، لكى نتوقف عند الدرجة اللائقة بنا وهى درجة الغائبين عن الحاضر.

لا أمل إلا بالانجاز من خلال التوحد مع اللحظة الحاضرة... هنا والآن. وإنسانيتنا تتحقق بالانجاز هنا والآن، والحديث باعتزاز عما سنحققه فى المستقبل فيه كذب ونفاق إذا تضمن التخلى عن التفاعل مع اللحظة الحاضرة، والكلام عن الماضى أيضا هو نصب واحتيال إذا لم يكن الهدف منه هو أن يصب فى الحاضر لينعشه ويجعله أكثر جمالا وعدلا وخيرا.

لا يوجد على الأرض فى متناول اليد سوى الحاضر.. هنا والآن.

الحاضر. ماذا تقصد بكلمة الحاضر..؟ ما معنى هذه الكلمة؟.. الحاضر.

اللغة كائن حي له ملامحه وفلسفته الخاصة والكلمات لا تسكن عقلك فقط لتنحدر منه إلى حنجرتك ثم تنزلق من فوق لسانك خارجة من فمك إلى آذان الآخرين .. بدليل أنك تتكلم مع نفسك أحيانا فى غياب الآخرين، ذلك أنها كائن حي فاعل يسكنك، يسكن الوعي واللاوعي. حروف الكلمة هي حروف فى نوتة موسيقية لا تعزفها أنت، بل هي تعزف نفسها بنفسها بداخلك، بهدف دفعك لفعل محدد.

أتصور أن اللاوعي شارك بسهم جبار فى صنع اللغة تماما كما يلعب نفس الدور فى صنع الأحلام، ولما كان اللاوعي يشحن مشاهد الحلم ولقطاته برموز ومعان كثيرة لا تتضح إلا عند التحليل، فهو أيضا يشحن الكلمة بالكثير من المعاني، فعلينا أن نفك شفرتها ورموزها، لنعرف المقصود منها، وبما أن مشاهد الحلم ليست مقصودة فى حد ذاتها، بل بوصفها رموزاً كثفها وشفّرها اللاوعي. كذلك الكلمات، المعنى السطحي فيها ليس هو نفسه المعنى الشامل.

ولما كانت الحقيقة على الأرض نسبية، بمعنى أنه لايمكن فهم حقيقة إلا منسوبة لأخرى، لذلك سنتمكن من فهم كلمة «الحاضر» عندما نتعرف على نسبها وأنسبائها.. سنتعرف على أقربائها وأفراد أسرتها ونطلب من كل منهم أن يرينا بطاقة هويته لنعرف وظيفته فى الحياة .. انتزع نفسك من ضجيج العالم وفكر فى كلمة «الحاضر».

حاضر يافندم: يعني أنا هنا يا سيدي ألبي نداءك ومستعد للاستجابة لما تطلب.

حاضر العقل: يعني قادر على الإمساك بمحتويات اللحظة والتعامل معها.

حاضر البديهة: بمعنى أنه قادر على استيعاب كل معطيات اللحظة والتعليق الصائب عليها بسرعة مكافئة لسرعة إيقاعات الفعل أو الزمن.. الحضور هنا بمعنى زيادة الوعي.

الحضور، هم هؤلاء الذين يتواجدون فى مكان ما فى زمن ما، وبذلك يكون الحضور هو نفسه التواجد، وعندما نقول عن شخص إن له «حضورا قويا» فمعنى ذلك أنه لا أحد يستطيع تجاهل وجوده.. وبذلك يكون الحضور هو أيضا الوجود الفعال.

البديل الوحيد للحضور هو الغياب، أي انعدام الوجود، البديل الوحيد للحضور هو العدم. عندما تحضر فى المكان والزمان فأنت موجود، لا يغني عن ذلك أن تحضر فى مكان وتغيب عن زمنه.فالغياب عن الزمن أيضا عدم، حيث لايوجد زمن بمعزل عن المكان، ولا يوجد مكان منفصل عن زمنه. ومن عبقرية اللغة واعتزازها بالكلمة أنها عندما أرادت أن تصف الرقي والتقدم والتهذيب والسمو نحتتها من كلمة «الحاضر» فى تنويعات جميلة هي «حضارة» «متحضر» «متحضرون».

إذن الوسيلة الوحيدة للتقدم والتحضر يتضمنها الحاضر، توجد فى الحاضر كل معطيات التقدم، ضع كفك فى إناء الحاضر واغترف منه ما شئت من جواهر التحضر ولآلىء التقدم.

والعقل الجمعى يرى فى الكلمة مهابة واحتراما، ويرى فيها قداسة أيضا.. نقول: حضرة فلان الفلانى، كما نقول: «عندما كنا فى حضرة رسول الله» وكثيرا ما تسمع فى الجلسات، صلِّ على حضرة النبى.. كلمة غنية ثرية بالمعانى، هى الوعى وهى الوجود وهى التحضر وهى الاحترام وهى القداسة.

صلب الحضارة وأداتها الحقيقية هى فى التعامل مع الحاضر. كاذب من يحترف أكاذيب الماضى ويزعم أنه متحضر، كاذب من يعتنق أفكارا لاتصلح للحاضر ولا يصلح بها الحاضر ويزعم أنه مفكر.

والحاضر ليس عربة سكة حديد، متوقفة فى مكانها، مركونة فى المخزن، تنتظر حضراتنا إلى أن ننتهى من شواغلنا لنركبها. بل هى تتحرك بسرعة على قضبان الزمن، وانعدام القدرة على القفز بداخلها يترك لنا خيارا واحدا هو القعود على رصيف محطة الدنيا ناظرين فى عجز وتعاسة إلى بقية الأمم التى تمر أمام أعيننا بسرعة البرق فى طريقها إلى محطة الخير والرفاهية.

لنتأمل الكلمة فى اللغة الإنجليزية، لنتعرف على دور اللاوعى فى صنعها والرسالة الكامنة فيها.. Present.

هى «الحاضر» وهى «يقدم» وهى «هدية».

هنا الحاضر يقدم هدية لك، بل هو نفسه الهدية. «حضورك» هنا مرتبط بأن «تقدم» شيئا، ليس أى شىء، بل هدية. قدم النموذج الذى يحتذى، قدم العدل، قدم النبل، لا تقدم الإعاقة، لاتقدم الجمود، لاتقدم الكسل والكسالى، لا تقدم العجز والعجزة، لا تقدم الضعف

والضعفاء. قدم هدية، قدم الذكاء والأذكياء، الهدية هى الحاضر الذى تفقنا على أنه هو نفسه الوجود، وامتناعك عن تقديم الهدية هو العدم.

هذا هو بالضبط الأثر الناتج عن الكلمة فى اللاوعى عند الناطقين باللغة الإنجليزية، والذى سنراه مجسدا فى أفعال البشر فى الغرب بعد أن شقت الكلمة طريقها إلى الوعى. ومنها.. Representative.

مندوب عن جماعة، أو ممثل لهيئة أو لفكرة. فى هذا الحاضر نحن لا نمثل أشخاصا فقط، بل نحضره بوصفنا ممثلين ومندوبين عن جماعات أو عن أفكار، وعندما نتقدم لهذا الحاضر فلابد أن نتقدم بالهدايا بعد ذلك سيعود الحاضر ليردها لنا أضعافا مضاعفة، لسبب بسيط وواضح: لأنه هو نفسه هدية، الحاضر هو نفسه الخير.

كل مشاكل مصر والمصريين ناتجة من الرغبة القوية عند كل الأطراف فى النوم على سرير الماضى. دخلت الأحزاب جميعا حارة سد هى حارة الماضى. تجمعوا خارج سور الحاضر، وبدأ كل منهم يتعرف على ملامح الآخر، فاكتشفوا أنهم جميعا ينتمون لقبيلة واحدة هى قبيلة الماضى، وأنهم جميعا يحملون بطاقة هوية واحدة، وأنه لا خلاف بينهم من أى نوع، حيث ينكرون معطيات الحاضر ولايهتمون به ولاينتمون إليه. اكتشف الجميع أنهم تابعون للعدم وليس للوجود، فكان من المحتم فى هذه اللحظة أن يتم التحالف بين الجميع فى جبهة واحدة بقيادة أكثر الجبهات احترافا للماضى، لأنهم جميعا واقعيا وعمليا يمارسون العدم.

وفى ظروف طبيعية كان من الممكن ألا يجد هذا العرض الردىء

تمويلاً، غير أن إرادة التاريخ شاءت فى صدفة نادرة وسيئة أن يكسب الجميع من ممارسة الماضى. فبالإضافة لعمليات النصب على المصريين وسرقة المليارات من جهدهم وعرقهم بواسطة المشاريع الوهمية التى تحمل طابعا دينيا. هناك أيضا فى المنطقة حكام يجوّعون شعوبهم وينفقون ببذخ على كل من يتعهد بتحويلها إلى خرابة.

ومن الغريب أن اللغة العربية لاتعرف « الفعل الحاضر» كما فى اللغة الانجليزية، بل أطلقت عليه لفظا غريباً يدعو للتأمل هو «الفعل المضارع» وكأنها تؤكد للبشر أن الوسيلة الوحيدة للحضور أو للتواجد فى اللحظة الحاضرة هى المضارعة، المنافسة، اللحظة الحاضرة. إذن هى ميدان المضارعة. وفى غياب المضارعة لا وجود لنا فى الزمان والمكان.

وإذا كان صوت الكلمة له خاصية استدعاء معان بعيدة.. فأقرب كلمة ستكون «المصارعة» وبهذا تكتسب اللحظة الحاضرة معنى جديداً.

الضعفاء فقط هم الذين يعشقون أفكار الماضى لعجزهم عن المضارعة والمصارعة.

***



فى القرن السابع عشر ساد الاعتقاد فى الغرب بتأثير قوة لسحر على البشر. واهتمت المحاكم الانجليزية بوجه خاص بما تسميه «العمل السحرى السفلى» الذى يمارسه الشخص ضد جيرانه. كل الكوارث صغيرها وكبيرها كانت تُعزى لأعمال السحر.

وقبل محاكمة ساحرات سالم (قرية فى ولاية ماسا شوستس، دنفرز الآن) أوردت سجلات المحاكم أسماء (١٠٠) مائة شخص اتهموا بممارسة السحر حكم على (١٥) خمسة عشر منهم بالاعدام، وفى عام ١٦٩٢ أعدم (٢٠٠) مائتا شخص خلال عدة شهور.

وبوجه عام، وعبر القرون كانت «مطاردة الساحرات» تحدث خلال فترات القلق والتحولات الاجتماعية. فمنذ أن جاء المستوطنون الأوائل استمتعوا بحكم شبه ذاتى حكموا من خلاله أنفسهم، ولكن فى

عام ١٦٨٤ فقدت ماساشوستس ميثاقها وأنشأت انجلترا إتحاد «نيوانجلند» الذى يضم عدة ولايات بغير إرادة أهلها، ليس التهديد فقط بفقدان الهوية السياسية وحده هو ماكان يهدد الولاية، بل إن حاكم الاتحاد الجديد أعلن أن الغاء الميثاق يمحى اسم الولاية وبذلك تنحدر إلى هوة النسيان.

على هذه الخلفية وفى شتاء ١٦٩٠-١٦٩١ فى مطبخ القس صمويل باريس، كانت "تيتوبا" العبدة الهندية الشابة تسلى وتداعب إبنة القس الصغرى «بتى» وعمرها (٩) تسع سنوات "وأبيجيل" إبنة أخت القس وعمرها (١١) سنة، كانت تروى للصغيرتين حكايات عن السحر والسحرة، وفى غمرة الاستمتاع بالحكايات استدعت الفتاتان عدة فتيات من الجيران تتراوح أعمارهن من (١٢) إلى (٢٠) عاماً ومن بينهن «آن بوتنام» وهى إبنة سيدة غير محبوبة من جيرانها. البيوريتان (المتطهرون) لايرون شيئاً بريئاً بالطبع أو مسلياً فى حكايات السحر والسحرة، ولايرونه لعب عيال.

وبغض النظر عن قدر الإثارة فى حكايات الخادمة الهندية فقد استولى على الفتيات شعور بالذنب نتج عنه احساس شديد بالتوتر. وفى يناير ١٦٩٢ تفجر هذا التوتر فيما نسميه الآن حالة هستريا.

بدأت تظهر أعراض غريبة على «بتى باريس» و«أبيجيل وليامز»، كانت تستولى عليهما نوبات ذهول، وعندما كان يخاطبهما أحد، كانتا تصدران أصواتاً وتقومان بأداء حركات عصبية غريبة، كانت «أبيجيل» تصرخ وكأنها تتعرض لنوبة ألم طاغية. انتقلت هذه الأعراض إلى بقية الفتيات وساد الرعب القرية.

وفى شهر فبراير استدعى القس باريس دكتور «وليامز جريجز» الذى استنتج بعد عمليات بحث وفحص طويلة أن الفتيات مسحورات. وجاء قساوسة كثيرون وانهمكوا فى الصلاة دون جدوى. وهنا أصرّ القساوسة على أن تعترف الفتيات باسماء من سحرهن أو سحر لهن بلغة هذه الايام.

من القواعد «المعروفة» أن الشيطان يعمل من خلال شخص ليؤذى شخصاً آخر. بمعنى أوضح لابد أن «يقنع» الشيطان شخصاً ليعمل «عميلاً» له. وفى هذه الحالة يظهر الشيطان لضحاياه على هيئة هذا العميل.

هذه المقولة انتقدها البعض بقوة ، ولكن المحكمة أخذت بها، وبالضغط على الفتيات أعترفن أن العبدة «تيتوبا» و«ساره جود» المتشردة و«ساره أوزبون» وهى سيدة منبوذة فى القرية هن اللاتى سحروهن فصدرت الأوامر بالقاء القبض عليهن على الفور.

وفى أول شهر مارس قام إثنان من القضاة بعمل جلسات استماع عامة فى قاعة اجتماعات القرية، القساوسة الذين تعاملوا مع القضية كان سلوكهم أقرب لممثلى الاتهام وليس للخبراء المحايدين.

«ساره هاجارد» حامل ترتدى أسمالا بالية وقفت أمام المحكمة وانكرت بوضوح أنها سحرت الفتيات، على الفور استولت نوبة عصبية على الفتيات، صرخات وحركات وتشنجات واتهمن ساره بأنها المسئولة عن المصائب التى تحدث لهن، وفى محاولة أخيرة يائسة لانقاذ نفسها، ألقت المرأة المسكينة بمسئولية تهمة السحر على «ساره أوزبون».

تم القبض على «ساره أوزبورن»، انتزعت من فراش المرض، أنكرت أيضاً علاقتها بالسحر أو بالفتيات، مرة أخرى ردت عليها الفتيات بنوبة الصراخ والحركات الهيسترية فقالت: لست أسحر لأحد.. الآخرون يسحروننى.

ثم قصت حلماً شاهدته: «لقد زارنى شخص على هيئة هندى أسود وقرصنى فى ركبتى وسحبنى حتى الباب» وماتت السيدة «أوزبورن» فى السجن بينما هى تنتظر المحاكمة، آخرون لاقوا نفس المصير. أما «تيتوبا» الخادمة الهندية فقد قالت للمحكمة ماتريد سماعه بعد محاولة ضعيفة للإنكار: نعم.. لى معرفة بسيطة بالشيطان.. هناك أربع نساء ورجل واحد ضغطوا علىّ وطلبوا منى أن أؤذى الفتيات وإلا آذونى هم.

وذكرت إسمين: «ساره جود» و«ساره أوزبورن» وزعمت أنها عاجزة عن التعرف على الشخصين الباقيين. ثم بدأت تعطى للمحكمة المزيد من (الأدلة): قطط تتكلم.. سيدة تركب عصا وتطير بها.. وأشياء من هذا النوع.

واحدة من المتهمات وهى "مارتا كورى" كانت فى وضع سيىء.. فقد صرحت علناً أنها لاتصدق مزاعم الفتيات، وأن هذه الحركات والتشنجات ليست أكثر من دلع فتيات مراهقات.

أما السيدة "ربيكافيرس" وهى عجوز ضعيفة شديدة التدين فقد أنكرت أنها تعرف أى شىء عن الموضوع برمته ،فوجهت المحكمة التهمة لأختيها وأخذت تناقش أقوالاً قديمة لهما لكى تثبت عليهما التهمة. كانتا تدليان بأقوالهما أمام المحكمة وسط جو عصبى

وهستيرى، ولكن السيدتين ظلتا على انكارهما، لم تعترفا حتى النهاية بعلاقتهما بالشيطان.

وبحلول شهر مايو كانت سجون القرية ومدينة بوسطن قد امتلأت بأعوان الشيطان منتظرين المحاكمة وأكثرهم من النساء، تراوحت أعمار الفتيات بين خمسة اعوام وهى «دوراجود» ابنة ساره والمبجل «جورج بوروس» شماس الكنيسة الذى اتهمته «آن بوتنام» بأنه تسبب فى وفاة زوجتيه بالسحر، واتهمته أيضاً بأنه المسئول عن وفاة الجنود الامريكيين الذين كانوا يحاربون الهنود الحمر على الحدود. كما اتهمه أحد القساوسة بأنه كان المشرف على مؤامرة الساحرات.

وفى نهاية شهر مايو كان قد تم تعيين حاكم جديد لماساشوستس وتم إعداد ميثاق جديد للولاية. خصص الحاكم الجديد محكمة خاصة لمحاكمة الساحرات ثم ترك الولاية لمواجهة مشاكل أكثر اهمية على الحدود.

كانت المتهمة الأولى التى تمثل أمام المحكمة هى «ساره بيشوب» صاحبة مطعم صغير، والتهمة الموجهة إليها هى أن «شبحها» ظهر بجوار فراش أحد الأطفال فأصيب بالمرض ومات وأدينت ساره ثم أعدمت على حبل المشنقة فى ١٠ يونيو.

بعدها ناقشت المحكمة قساوسة عدة للاسترشاد بآرائهم فى مسألة الشيطان وأعوانه وطبيعة الأدلة على ذلك، فحذر بعضهم من الاعتماد على ظهور شبح شخص فى مكان كدليل على صداقته للشيطان، لأنه من «المفترض» أن الشيطان قادر على التنكر على هيئة أبرياء.

عادت المحكمة للإنعقاد فى ٢٨ يونيو، واحد فقط من المتهمين الخمسة تم الافراج عنه وتم الحكم على الأربعة الباقين بالاعدام وتم شنقهم فى ١٩ يوليو. حاول أحد القساوسة الضغط على «ساره جود» لتعترف بأنها ساحرة، كان دليله أنها «تعرف» أنها ساحرة فردت عليه: أنت كذاب، لست ساحرة بأكثر ماتكون أنت سحلية.. وإذا أرسلتنى إلى المشنقة سيجعل الله الدم شرابك.

وتقول بعض التقارير: إن هذا القس مات بنزيف فى المعدة وكان يتقيأ دماً.

أدين ٦ ستة آخرون فى شهر أغسطس وتأجل إعدام «اليزابيث بروكتر» لأنها حامل. أنقذ هذا التأجيل حياتها، زوجها الذى كان يعلن عن عدم تصديقه لما تقوله الفتيات تم إعدامه. حاولت خادمته أن تتراجع فى أقوالها والتى أدين بسببها، فبعيداً عن قاعة المحاكمة كانت تبدو أقرب للعقل والمنطق، وعندما تواجه بحركات الفتيات الهستيرية كانت تستولى عليها نفس الحالة الهستيرية.

«ساره تشرشل» التى أنقذت نفسها بالاعتراف بعلاقتها بالشيطان قالت فى جلسة خاصة: إذا قلت لهم إننى لست كتاب السحر الشيطانى مرة واحدة فى حياتى فسيصدقوننى على الفور، أما إذا أقسمت لهم مئات المرات أننى لم ألمسه فلم يكن ليصدقنى أحد.

وفى شهر يونيو أدين ١٥ خمسة عشر شخصاً وأعدموا، كان هؤلاء آخر المشنوقين، فقد توقفت المحاكمات وصدر قرار بتأجيل تنفيذ كل الأحكام لعدم كفاية الأدلة المستمدة من الشهادات التى تزعم

أنها شاهدت شبح شخص ما فى مكان ما وبالتالى فهو من أعوان الشيطان.

آراء حرة من رجال الدين فى نيويورك انتقدت بشدة كل أنواع الأدلة التى أخذت بها محكمة ماساشوستس، وعندما انعقدت الجلسة التالية لم تأخذ المحكمة (بالدليل الشبحى)، أدين ثلاثة فقط بأدلة أخرى ولكن الحاكم أجل تنفيذ الأحكام.

أحدث هذا التأجيل مشاكل قانونية ومالية، أهونها أن يدفع المحكوم عليه نفقات إقامته فى السجن كشرط للافراج عنه.

وفى نفس الوقت الذى كانت فيه انفعالات البشر تخمد تدريجياً، كانت الشكوك تتزايد حول محاكمات الساحرات، وفى يناير ١٦٩٧ أصدرت المحكمة العليا قراراً بالصوم والصلاة يوماً واحداً تكفيراً من الجميع عما حدث استجابة لطلبات كثيرة قدمت لها، كما أصدرت أحكاماً بصرف تعويضات مالية للمتهمين وأسرهم.

(٧) سبعة من المتهمين لم يتقدم أحد من أسرهم لصرف التعويض وظلت المبالغ مرصودة حتى الآن فى السجلات. (عن كتاب أشهر المحاكمات فى تاريخ أمريكا)

* * *

لاحد للوحل والوحشية اللتين ينغرس فيهما العقل البشرى عندما ينغمس فى الخرافة. كان المطلوب فى هذه المحاكمات أن ينقذ المتهم نفسه بالاعتراف بعلاقته بالشيطان، كان المطلوب أن يكذب لينقذ حياته، فتكون النتيجة أن هؤلاء الذين أعدموا، اعدموا لأنهم – كمسيحيين حقيقيين – رفضوا أن يكذبوا.

ولكنك حتى عندما تعتقد أن الأكاذيب ستنقذك فأنت واهم، سيواصل المحقق سؤالك.

- هل تعرف الشيطان؟
- نعم.
- هل تتقابلان؟
- نعم.. أحياناً..
- ماذا تفعلان معاً..؟
- نتسامر ونتبادل الحديث فى شئون وأحوال الناس ونسبب الشر والأذى للآخرين.

طبقاً لتعاليم الدين المسيحى هذا «الاعتراف» كاف لتبرئتك، ولكن المحقق الذى يتولى مطاردتك والذى عششت فى عقله الخرافة لاينفذ تعليمات الدين لأنها لاتهمه أصلاً، مايهمه هو ومن على شاكلته هو القضاء على الآخرين، هذا النوع من البشر إمتلأ بوحشية متبقية بداخله من عصور الغاب، طاقة وحشية أفلتت من قيود الحضارة، لذلك سيواصل :

- عندما كان يأتى لك الشيطان، هل كان يأتى بمفرده؟
- نعم.
- لا أظن ذلك.. من الأفضل أن تعترف، من المستحيل أنك الوحيد فى هذه القرية الذى يصادقه الشيطان.. هناك أصدقاء آخرون.. من هم؟ أريد أن أعرف منك أعضاء «الخلية» أو «اللوبى» أو «التنظيم»

لن تفلت الضحية إلا اذا اعترفت على آخرين وبذلك تتسع

الدائرة. لقد اطلع آرثر ميللر على سجلات هذه المحاكمات وخرج منها بمسرحية من أعظم ما كتب فى العصر الحديث باسم «البوتقة» ، وفى أثناء مشاهد التحقيق عند عرض المسرحية كان من السهل على المتفرجين أن يدركوا أن ما حدث من لجنة «ما كارثى» هو نفسه ما حدث من قبل فى بوسطن وما يمكن أن يحدث فى أى مكان فى العالم.

فى حوار مع آرثر ميللر قال: شاهدت عرضاً لمسرحيتى فى هونج كونج.. قالت لى البطلة: من المستحيل أن تكون هذه المحاكمات حدثت فى امريكا.. لقد حدثت فى الصين بكل تفاصيلها ولكن على المستوى السياسى.. التحقيق كان لانتزاع الاعتراف بأن المتهم عميل للامبريالية، بنفس الاسلوب، بنفس المشاهد، بنفس الحوار.

فقلت لها: العقل البشرى فى نفس الظروف ينتج نفس الفعل بنفس الالفاظ فى أى مكان على الأرض.

***

رقم الايداع ١٨ ٤٤ / ٩٧
الترقيم الدولى
I. S. B. N. 977 - 08 - 0614 - 5